شرفة نصف مغلقة

عمر القيصر



الكتاب : شرفة نصف مغلقة (مجموعة قصصية)

المؤلف : عمر القيصر

الطبعة الأولى . القاهرة ٢٠٠٨

رقم الإيداع : ٢٦٩٤٤ / ٢٠٠٧

الناشر : شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى. المقطم. القاهرة

ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤ ٠٢ (٢+) - ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥ (٢+)

www.shams-group.net

الغلاف : الفنان أمين الصيرفي

شرفة نصف مغلقة

إهداء

"أقول أحبك"...

فتأتيني لحظات، تدور فيها الدنيا،تختفي فيها العوالم، ينساب جسدي، يتحول إلى شوق؛ وحنين، يتفتت عمري إلى ذرات تجذبها همساتك؛ تجمعها؛ تعيد ترتيبها، لأخلق في أحضانك... من جديد.

"سأظل أحبك"

ومهما كان من أمري، مهما كان ما ينتظرنا من مصير، ومهما كان قدرنا؛ قرارنا، أو اختيارنا... ستظل خالداً بقلبي، تملك روحي، أنطق كلماتك... وسيظل حبك... وحي أفكاري؛ لون شفتيّ؛ خطوط ملامحي... وسأبقى دوماً... أحملك بين جنباتي، أحكم عليك وثاق نفسي... لتظل تملؤني، تمتزج بعمري... وأظل بإحساسي بك؛ خوفي عليك، واختبائك داخلي... أظل... سعيداً...

"ولا أملك إلا أن أحبك"...

وسأظل أحبك، ستظل معي؛ ترافقني، ألقاك، أجلس إليك، أسمعك وتحاورني، أشكو إليك بعدك عني، وطول غيابك... ألقي بنفسي في أحضانك، وتأخذني إليك، تعوضني ما فاتني بعيداً عنك... ونفترق على موعد، أتركك كي ألقاك، حتى وإن كنت أعلم أن لقاك... قد صار... من المستحيل.!

عمر القيصر



بدايات



■ **الساعة الأولى :**

لازلتُ أغوصُ فيك، أنامُ على صدرك، أشعرُ قوةَ ساعديك، دقاتِ قلبك، همساتِ شفتيك، وحرارةَ عناقك لحظةَ الوداع... أنتظر بصبر أن أفيقَ من هذا الحُلم الكابوسيِّ، أرهفُ السمع، أنتظر صوتك يناديني، تطالعني بابتسامتك، تطلب مني أن أعيدَ ترتيب أشيائك في مكانها القديم؛ بجانب أشيائي... أرهفُ السمع، يطول انتظاري، ولا أسمع سوى ضجيج الصّمت، والسُّكون المدوّي، وأظل أرهف السمع... وأنتظرك.

■ **اليوم الأول :**

استيقظتُ مبكرًا ـ كعادتي ـ داعبَ عينيَّ ضوءُ الصباح، ألقيت بذراعي كي أطوقك، كي أطمئنَ إلى وجودك جانبي، كي أستمدَ منك طاقة وجودي وجوهر كياني، كي أبخّر بدفء جسدك برودة عالمي... تحسَّست يداي فراغًا، وبرودة تصلبت لها أطرافي، لململت غطائي، قمتُ بترتيب الفراش، اتجهت إلى الخارج، بعيدًا عن جسدك، الذي لا يزال يسكن فراشي... ويسكنني.

- **الأسبوع الأول :**

صار استيقاظي أقل تبكيرًا، أحكمتُ من شدِّ الغطاء على جسدي، لم تساورْني الرغبة في النهوض، مددت بصري حيث اعتدت أن ترقد، راودتني خيالات لجسدك نائمًا بجواري، وجهك مدفون في الوسادة... أمدُّ يدي كي أتحسَّسَ هذا الوجه؛ كي أعدِّلَ من وضع وجهك كما كنت أفعل... لكني أعود من منتصف الطريق، فأنت لستَ هنا، وأنا أعلم أنك لست سوى خيال، بقايا ذكرى تلعب بأحلامي... أنتزعُ الغطاءَ انتزاعًا، تهرب صورتك، يختفي الخيال... أجلس هناك، أحتسي القهوة الساخنة، أنظر إلى الحجرة، إلى الفراش غير المرتب، الفارغ...

ألمْ أخبرْكَ أنك لم تعد هنا ؟.. وأنك لستَ سوى خيال ؟

- **الشهر الأول :**

أستيقظ على رنين الهاتف، ليست لديَّ رغبة في الرد، ترى من يريد محادثتي في هذا الوقت المبكر من الصباح؟... أحاولُ النهوض، لكن جسدي يؤلمني، أنظرُ بجواري، أجد كتابًا ملقًى على الوسادة، أتذكر أنني قد أصررت على إنهائه قبل أن أخلدَ للنوم... أرفعُ الكتاب، وللحظاتٍ

أتخيلك تنظر إليَّ، تتأمَّل الكتاب، لطالما أحببت كتبي، لأنك يومًا أحببتني، لكنك أبدًا لم تحب القراءة، أعلم ذلك.. تجلسُ بجواري، تداعبُ خصلاتِ شعري، تقرأ معي سطرًا أو سطرين، تخطف مني الكتاب، تبتسم في براءة وطفولة، تـُلقي الكتابَ جانبًا، يسقط على الوسادة، تقترب مني أكثر... لا أدري لماذا لم أعد أفكر فيك كثيرًا، لماذا أتذكر خطوط جسدك، دون أن أتذكر ملامحك، أتذكر كلماتك، لكني لا أستطيع أن أسترجع لون شفتيك... أخرجُ من فراشي، أضع الكتاب على المنضدة... وأستعد للخروج.

- **العام الأول :**

أستيقظ متأخرة، أسرعُ بترتيب الفراش، أضعُ القهوة على النار، أرتدي ملابسي، أعودُ كي أستكملَ إعداد قهوتي، أرتشفها على عجل، ألملم أشيائي... وأنطلقُ خارجًا، إلى الحياة.!!

شرفة
نصف
مغلقة

مختلفة

- - إنها م... خ... ت... ل... ف... ة...!

كنتُ دائمًا أسمعُ تلك الكلمة من أفواه كل من يرَوَنني، في نظرات كل من يلمحونني، في صمتِ من يتأمَّلونني... حقيقة أنهم كانوا يخطئون الهجاء، يخطئون النطق... ولا ألومهم كثيرًا، فهذا شيء وارد، فليس منا معصوم من الخطأ، وكل ابن آدم خطاء... فكنتُ أسمعهم يقولون: - إنها م... ت... خ... ل... ف... ة...!

إلا أنني كنتُ أعلمُ أنهم لا يقصدون هذا الخلط، لا يعنون ما قد يفهمه من يسمعهم يقولون ذلك، فهم يحبونني، نعم... فهم عائلتي، أمي، أبي، أخواتي، وأقاربي الذين لم أعرفْ سواهم، ولم تتسعْ دائرة معارفي أو تعاملاتي لتشمل غيرهم. كانوا يحرصون عليَّ أكثر من حرصهم على الحياة ذاتها، يحبونني أكثر من حبهم لسعادتهم وأغلى أمانيهم. كانوا دائمًا يحيطونني بالحب والرعاية والاهتمام، وكنت أدرك في قرارةِ نفسي سرَّ حرصهم عليَّ، إصرارهم الدائم على الاحتفاظ بي أمام أعينهم، تحت رقابتهم، ورفضهم التام لخروجي... فأنا بالنسبة لهم شيءٌ نفيس، كنزٌ ثمين، وحبٌ غالٍ... فأنا مُختلفة.!

كنتُ أعلمُ أن بعض نظرات السخرية والاستهزاء، كلمات التهكم، حركات الشفتين، النفور والضيق، وأحيانًا الخوف الذي أراه على وجوه بعض أقاربي مِمَّن هم في مثل سِني.... ما هي إلا وسائل للتعبير عن غيرة دفينة، لأن الجميع يعاملونني بمودة زائدة، بحب صادق... يسعون إلى مجالستي، ويمعنون في التقرب إليَّ... يفوق اهتمامهم بي أضعاف ذلك الاهتمام الذي يولونه إياهم... كنت أدركُ أن تلك الغيرة تجعلهم، بل وتدفعهم دفعًا إلى محاولة إغاظتي لإفساد سعادتي، وإضفاء جوٍ من الكآبةِ، تختفي خلف كثافة سُحبها سمائي... كنت أدرك كُنه ذلك الشعور، وكنت أقدر أيضًا موقفهم شبه العدائيَّ مِني... فما أقسى الإحساس بأنك لستَ محط الأنظار، لست محور الاهتمام، وأن هناك من يخطفُ منك الأضواءَ، فتسلط عليه وحده، من يسحب من تحت قدميك البساط، فتقف مهتزًا، خائفًا، مرتعشًا تخشى السقوط... لكني أبدًا لم أنزعجْ، لم أغضبْ منهم، لم تقفْ غيرتهم مِني حائلاً بيني وبينهم، فقد كنتُ أعلمُ أن شعورهم بالغيرة ليس مرجعُه كـُره أو سُخط، بل يرجع إلى كونهم يعلمون أنني... مُختلفة.!

لكني كنت دائمًا أعجبُ لكل هذا الاهتمام، كل هذا الحرص، كل هذا الحب المطلق، كل هذه الرعاية؛ الخانقة أحيانًا... لماذا يصر الجميع على بقائي بالمنزل حتى عودتهم، ولماذا يندلعُ الشجار حين يتم اختيار من

سيقوم بمجالستي منهم، ويحرم من تلك النزهة، حتى وإن كانت مجرَّد زيارة لقضاء واجب... كنت أتعجب في نفسي... ترى ماذا يوجد هناك؛ خارج جدران منزلنا، خارج جنتنا، خارج حدود حياتي؟... ماذا هناك حتى يدفعهم إلى كل هذه الضراوة في الشجار، والاستماتة في التمسك بحق الخروج معهم، بالحرية، بحق الحياة؟

كنتُ أعلمُ أنهم يتوقون إلى الخروج؛ ليس لأنهم قد ملوني... بل لأنهم سيفتقدون شيئًا ما، شيء هام بالنسبة لهم ولا أعلمه أنا... ترى ماذا سترى أعينهم هناك؟... هل هناك أجمل من بيتنا الهادئ، أثاثنا المتناسق النظيف، وجه أبي الصبوح، وجه أمي الحنون، ووجوهنا السعيدة؟... هل ستشم أنوفهم روائحَ أطيبَ من رائحة منزلنا الذي تنشر أمي في أرجائه العطر، حتى تشعر أنك تجلس في إحدى رياض الجنة، أو حديقة قصر من قصور الأساطير؟... أو رائحة البخور الأخاذة الذي تطلقه أمي في أيام الجُمَع؟... أو رائحة طعامها الشهي التي تجعل صبرَنا ينفد في انتظار لم شمل الأسرة حتى نتناول طعامنا معًا؟... أو رائحة الدفء الذي يفوح من أجسادنا، حين نجتمع معًا في أيام الشتاء؟...

ترى ماذا سيسمعون من أصواتٍ أرقّ وأعذب من صوت أمي وهي تنادينا، تقرأ لنا ونحن صغار، همهمتها بألحان عذبة في لحظة شرود، أو لحظات استمتاعها إلى إحدى الأغنيات المحببة جدًا إلى نفسها؟... وهل

هناك أحنّ من صوت أبي؛ الهادئ؛ الصارم، الوقور، حين يستفسرُ عن أحوالنا، حين يسألنا بعطفٍ إن كان ينقصنا شيءٌ ما، إن كنا في حاجة إلى شيء ما... وحين يؤكد لنا أننا أغلى كنوزه، وآخر أمانيه؟... ترى ملذا هناك أجمل من أيامنا التي نقضيها معًا؟

كنت أحيانًا أشعر بالرثاء لمن يجالسني، فيظل حزينًا مهمومًا حانقًا غاضبًا، ضاعت منه السعادة، فقدَ مرَحَهُ، يغالب شعوره بالضيق حتى لا ألحظه... وكأني لا ألحظه... كأني لا أستطيع أن أستشفه من قسمات وجهه، من نظرات عينيه، ومن نبرات صوته... ويعود الجميع، فيظل بمعزل عنهم، لا يحادث منهم أحدًا، حتى يعلم الجميع أنه غاضبٌ منهم، ناقم على ما فعلوه بهِ، وما حرموه منه... حتى حين يأتون لنا بأجمل الأشياء، يظل هو معاندًا، مكابرًا، ثائرًا، فتحفظ له أمي ما يخصُّه حتى الصباح، حتى يهدأ، وتنطفئ جذوة غضبه.

لكن... مهما يكنْ هناك، مهما رأوا من أشياء تجذبُ انتباهَهم، مهما داعبتْ أنوفهم من روائح تغريهم وتثيرُ نفوسَهم، مهما سمعوا من أصواتٍ تستحوذ عليهم... مهما يكنْ هناك؛ من المؤكد أنه ليس بديعًا، ليس جميلاً، لا يُقارَنُ بما أراه أنا، بما أستنشقه أنا، بما أسمعُه أنا، وما أشعرُ به أنا... هنا... ولذلك يخشون خروجي، يخافون عليَّ... لأن كل شيء

بالخارج ليس رقيقًا، ليس عطوفًا أو حانيًا، غير متكاملٍ مثل أبي، مثل أمي، مثل أخواتي، أو عائلتي... لذا فهُم يحجبونني عن كل الأشخاص، وكل الأشياء... لأنني... مُختلفة.!

كنت أعجبُ لمرأى أختي وهي تقف أمام المرآة ساعاتٍ طوال، تصففُ شعرها، تخطُّ حاجبيها، تطلي شفتيها، تختارُ الأثواب، ترتدي هذا، تخلعُ هذا. وما يمر لها من موعد إلا وتكون قد جرَّبت كلَّ الأثواب عليها، حتى تنتقي في النهاية إحداها، متبرمة، غير راضيةٍ عن نفسها، متيقنة أنه لو كان هناك مُتسع من الوقت؛ لاستطاعتْ أن تبدوَ اجمل، أن تهتمَّ بزينتها أكثر...

كنت أعجبُ وأنا أتذكرها واقفة أمام المرآة، تدور حول نفسها، تتأمَّل جسدها، تشد الثوب عليها، تريد دائمًا أن تتأكد إن كانت أنوثتها قد اكتملت، أم أن الوقت لم يحن بعد، أو أنه مازال ينقصها شيء ما... وكانت دائمًا تدرك ـ أو هكذا تتخيل ـ أنه مازال ينقصها شيءٌ ما... ربما أن وجهها غير كامل الاستدارة، قوامها ليس ممشوقًا بما يكفي، أو أن معالم أنوثتها لم تزلْ بعد وتشي بأنها لم تزل صغيرة.

أما أنا... فقد كانت حياتي أبسط من ذلك بكثير، كنت أجلس بين يديّ أمي، فتمشط شَعري ـ رغم أنني أستطيع فِعل ذلك بمنتهى اليُسر ـ وتصففه كما تشاءُ هي، وأنا بين يديها راضية قانعة... كانت تختارُ لي

ملابسي، فأرتديها سعيدة، شاكرة لها اهتمامها بي... فهي لا تريدني أن أجهدَ نفسي، أن أقعَ في حيرةٍ قاتلةٍ لاختيار ثيابي... لا تريدني أن أصبحَ مثل أختي، أقف أمام المرآة ساعات... ولا تظنوا أن اهتمامها بي عدمَ ثقةٍ في ذوقي، أو شكًا في قدرتي على الاعتماد على نفسي... فأنا لا يوجد بي نقصٌ أو عيبٌ... كل ما هنالك أنني... مُختلفة.!

كانت أختي تتحدث في الهاتف ساعاتٍ طويلة، وأنا أنظر إليها مندهشة... لا أحاولُ أن أستمعَ إلى حديثها، لأني أعلم جيدًا أنه من سُوءِ الخُلق أن تنصتَ إلى ما لا يخصُّك أو أن تحاولَ أن تتدخلَ فيما لا يعنيك... هكذا أخبرتنا أمي، وهكذا علمنا أبي... وأنا واثقة تمامًا من صحةِ آراءِ أمي، وأخلاق أبي... لكني كنتُ بالفعل أشعرُ بالدهشة؛ لماذا تتحدث أختي كل هذا الوقت؟.. لماذا تبتسم؟.. لماذا تقطِّب؟.. لماذا تنظر في مكر أو دلال؟.. لماذا ترفعُ حاجبَيْها وكأنَّ مَن يحادثها يراها؟... كانت انفعالاتها، إشاراتها، إيماءاتها... طبيعية، عفوية، وكأنها تحيا اللحظة، تعيشُ الموقف، كأنها تستحضرُ في خيالها شيئًا ما، أو شخصًا ما، وحدها. وكنتُ أتعجَّبُ أكثر حين أتفقدُ أرجاءَ بيتنا الدافئ، فأجد الجميع هناك؛ كل أفراد أسرتي، كل حُماة وطني الصغير... بيتي... فكل أخواتي هنا، كذلك أبي وأمي... فمن تحادث إذن؟.. مَن سوانا يستحق الحديث؟.. مَن غيرُنا تخصُّه ضحكاتنا، سعادتنا، مرحنا،

أو تقطيبنا؟.. مَن غيرُنا يستحق أن تقضي كل هذا الوقت معه، ونُحرم فيه من بعضنا؟.. من يا ترى تفضّله علينا؟.. مَن تراه أحق باللحظة مِنا؟.. مَن ذا الذي يلفها بهالات غريبة علينا، فيعزلها عنا، حتى أشعر أنها بعيدة كل البعد، رغم أنها لا تزال بيننا؟.. مَن يا ترى؟.. من؟...

لكني كنتُ أدركُ أنه ربما كانت تلك الحياة خارج منزلنا هي ما تجعلها غريبة الأطوار بالنسبة لي، قد تكون تلك الحياة لها آثار، انطباعات، تتركُ بصماتٍ على كل من ينزل إليها، يدخلها، يدور في فلكها... فتغير فيه... قليلاً، أو كثيرًا... لكني أبدًا لم أتغيرْ... ربما لأنني لم أعترك تلك الحياة، وربما لأنني لست مثلهم، ولا أرغبُ أن أكون مثلهم... لأنني غيرهم... فأنا... مُختلفة.!

عجبتُ أكثر حين بدأتُ ألاحظ أن محادثات أختي صارت أقصر طولاً، أقل وقتًا، أقل مرحًا وأكثرَ تعاسة... بدأت حينَها ألاحظ أن ابتساماتِها صارت قليلة، بل نادرةً... غمزات عينيها، نظرات الدهشة، همسات الدلال، أمارات السعادة وعلامات الفرح... أصبحت معدومة... حلَّ بها وُجومٌ، حزنٌ، برودٌ وشتاءٌ قارصٌ طويلٌ، صارت كل الكلمات عندها سِيَّان، لم تعدْ تصحبُ كلماتها أية تعبيرات أو حركات، لم تعدْ تفرح، لم تعدْ تحزن، ولم تعدْ تغضب... بل وخُيِّلَ لي أنها لم تعدْ تشعر، وكأنها لم تعدْ حية... أحسستُ أنها قد فقدت شيئًا غاليًا، فقدتْ عزيزًا، إلا أنها لم

تكن ترتدي سوادًا... فأنا أعلمُ جيدًا أنه حين نفقدُ عزيزًا نرتدي السَّواد، وبقدر حبنا له، وحزننا عليه، تطول فترة ارتدائنا له... ولكن... يملأ السَّواد الأعظم قلوبنا.. فحين مات جدِّي لأمي - وكنتُ أحبه بقدر حُبي للحية ذاتها - حزنت أمي حزنًا عميقًا، شحُبَ وجهُها، أصابها النحول، وتورَّمت عيناها من طول البكاء؛ وكذلك أختي، طال صمتهما، ظهر الحزن واضحًا جليًا في كل قسماتهما... وكثيرًا ما كنتُ أراهما تنظران إلى صورة جدي الحبيب وتجهشان بالبكاء، حتى يحضر أبي، فتكفان عن البكاء، حتى لا يزداد الجَو وُجومًا وتوترًا وحزنًا... أمَّا أنا... ففي طريقة تعاملي مع هذا الموقف... كنتُ بالفعل... مُختلفة.!

لم أكن أدري ما هو الموت، كل ما كان يؤرقني حينها أني لن أرَى جدي بعد الآن، لن يأخذني بين ذراعيه، لن يمسحَ على شعري، لن يربتَ على كتفي، لن يداعبني حتى أنام بين يديه وأغرق في أحلامي التي كنتُ أراني فيها بين أسرتي، نمرح ونلهو وسط مروج وحدائق، فلا يعكر صفوَ حياتنا الهادئة شيء، كان الموت بالنسبة لي أقرب إلى السفر، إلى الغياب الذي كنتُ أعتقد - حينها - أنه لا بُد أن يتبعَه عودة، لا بُد له من نهاية، وأن كل غائبٍ سيعود، وكنتُ أضحك في سعادة وأنا أتخيل كل أقاربي المسافرين - الموتى - وقد عادوا فجأة، فازدحم البيت بالعائدين، وصارت لدينا أزمة كبيرة، حتى أننا - أنا وأختي - اضطررنا

للنوم في المطبخ؛ بجوار الموقد؛ خلف الباب؛ أو تحت السرير، وحين تأخر مسافرونا في العودة، بدأتُ أدركُ أن الموت سفرٌ طويل، غيبة مبهمة، عرفتُ من نظراتِ أمي؛ من حُرقة آهاتها ولوعتها، أنها غيبة أبديَّة، فالمسافر لا يعود، بل يلحق به الآخرون، تمنيتُ في نفسي لو استطعتُ السفر إلى جدي، لو استطعت رؤيته، شريطة أن أعود، لأني لا أريد أن أحرَمَ من أسرتي، ولأني سأفتقدهم بشدة... وكأن أمي تقرأ أفكاري، فأجدها تضمني إليها، تتمنى لي السلامة، وتدعو لي بطول العمر... بدأت أعتقد أن السفر رحلة مملوءة بالمخاطر، غير محببة إلى النفس، وتمسكت أكثر بأفكاري عن العالم الآخر؛ خارج المنزل؛ فالعالم هناك آلام وأحزان، صعاب ومخاطر، ومن هم مثلي، يجب أن يتم إبعادهم عن تلك الصراعات، عن تلك التجارب، لأنني... مُختلفة!

تذكرت جدي وهو يهمس إليَّ بكلمات لم أدرك معناها في ذلك الحين، كان يقول لي والدموع في مقلتيه:
" لقد طهركَ الله من الذنوب، وقاكَ المعاصي، جعلَ قلبك كثوبٍ أبيض بلا دنس، جسدك بريء، طاهر، لا يشتهي، أو تحرقه رغبات... كفاك مشقة الخوض في دنيا يملؤها الشر، تفيض منها الخيانة، ويزينها الغدر والطمع... إن عقلك الصغير لا يتسع إلا لأفكار نقية، عن الحب، عن الخير، وعن التسامح... كل أحلامك عن الجنة، ذلك العقل الذي لا

يدرك أبدًا معنى الإثم، القسوة، أو الخديعة والمكر... باركك الله يا صغيرتي، وحفظك من كل شر، ووقاك غدر الأيام والبشر".

آهٍ يا جدي، هل كنتَ تظنني سأظل العمر صغيرة، بلا عقل، ضيقة الأفق، أراهم يتألقون وأحلق بخيالي في السماء، أصادق الملائكة، أرفرف بأجنحتهم، يلقون بالسعادة على وجهي، فتتناثر كشظايا البلور على مُحَيَّاي، كيف كنت تظنني سأحيا معهم بجسدي، منفصلة عنهم بكياني، بأحاسيسي، بوجداني... هل كنتَ تظنني سأظل العمر... مُختلفة.!

نعم أدركتُ أن أختي قد فقدت عزيزًا، لكنها لا ترتدي سوادًا، إذن فهو لم يمت، ولربما كان مسافرًا، لكنه حتمًا سيعود، وهى حزينة على فراقهِ، لكنها لا ترتدي سوادًا، لأنه سيعود، لا بُد أن يعود، حتى تعود أختي كما كانت.

مرَّت أيامٌ، ازدادت أختي وُجومًا، ازداد وجهُها شحوبًا، واختفت حيويتها، وشيئًا فشيئًا، ندر حديثها، ثم انقطعت تمامًا عن الكلام، بل وطلبتْ من أمي أن تخبرَ كل من يسأل عنها بأنها غير موجودة؛ لأنها لا ترغب في الحديث إلى أحد؛ أي أحد، وظللتُ أنا في حيرةٍ، تائهةٍ، وأنا أسترجعُ كلماتها... كيف تخبرهم أمي أنها ليست هنا، وهي هنا، أمامي؟.. كيف يستطيع الإنسان أن يكون هنا، وليس هنا؟.. فالإنسان إما أن يكون في

مكان ما، أو لا يكون... هل أستطيع أنا مثلاً أن أكون هنا لأمي، ولست هنا لأبي؟.. هل أستطيع أن أجعلَ أبي يراني هنا وأمي لا تراني هنا؟ وبدأتُ أفكرُ أنه ربما تكون لأختي قدرات لا أعلمها أنا، ربما كانت للعالم الآخر آثارٌ أخرى عليهم، غير تلك التي عايشتـُها أنا، ولاحظتها تطرأ عليهم، لا بُد أن أسألها، أن أستوضحها، أن أستفسر منها، أن أجعلها تخبرني، لكني لن أسألها عن ذلك العالم، عن تلك التغيرات أو القدرات التي اكتسبتها، فذلك كله لا يهمني في شيء، لا يمثل لي أي شيء، لكني سأسألها عن سرِّ حزنها، عن سبب عزوفها عنا، عن حرمانها لي من كلماتها، عن إحساسي ببُخل عاطفتها، عن شقائي بعيدًا عن مداعباتها، سأسألها عن حقيقة بُعدها عنا، وخاصة عني أنا، أريد أن أتعلم منها، أن أعيش تجاربها، أريد أن أشاركها أحزانها، أريد أن أدخل إلى عالمها، أهتم بها، أرعاها، أغدق عليها بحبي وحناني؛ فطيلة عمري وأنا محور الاهتمام، مركز الدفء الذي تتجمع عنده كل العطايا. طيلة حياتي وأنا آخذ لا أعطي، أستقبل شاكرة لا أمنح، حتى ثقلت موازيني بما أحمل، انتفخت أوداجي، امتلأ قلبي بالحب، صار مفعمًا بالمشاعر التي لا بُد لها من منفذ، لا بُد لعواطفي من مخرج، لم يدركوا أبدًا أن كثرة حبهم لي، وفيضان مشاعرهم، قد يخنقني إن لم أبادلهم حبًا بحب، مشاعرَ بمشاعر، واهتمامًا باهتمام... ما أحوج أختي إلى حبي

وحناني واهتمامي الآن، لكني لا أعلم كيف أبادرها، كيف أفتح لها قنوات مشاعري، كيف أفيض عليها من تيار حناني، لا أعلم كيف أجعلها تفهم أنني أشعر بها، أحس حركاتها وسكناتها، أشعر آلامها وأحزانها التي تحاول أن تخفيها عن الجميع، كيف أقنعها بأنني أعلم سر القناع الذي تضعه على وجهها، وتتظاهر بالمرح، وقلبها ينفطر حزنًا، وتمزقه آلام وداع، كيف أصل إليها، كيف أدور معها في مدار حياتها، كيف أحط على كوكبها، وأنا... مُختلفة.!

في النهاية قررت أن أتحدث إليها بطريقة مباشرة ـ كعادتي ـ فأنا لا أرى أية دواعٍ لأن أظلَّ أدور حول نقطةٍ ما، أقترب وأبتعد، أكتم وأعلن، بل أرى أنه من الواجب عليَّ أن أبوحَ بما أريد، أعبر بما أشعر به، بكل صراحة، بوضوح... لا أدري كيف كانوا يملكون القدرة على تلك المناورات، لا أستطيع أن أتخيل كيف تحملوا وفضّلوا الكتمان، كيف أكتم رغبتي في شيءٍ أريده، ولماذا؟.. خاصة إذا كان الجميع يلبون كل رغباتي، يحققون كل أمنياتي، فلماذا أكتم وأنا أعلم مسبقًا أن طلبي مجاب، عرضي مقبول؟... ولا أنكر أن هذا كان أيضًا من دواعي دهشتي، تعجبي، وأحيانًا استيائي أو إيلامي، فبينما كنتُ أرى أخواتي يمرون بمراحل مُختلفة، أمزجة مُختلفة، ومشاعر مُختلفة، يطلبون أشياءً، يصيبهم التوترُ، الخوفُ، الفضولُ، الفرحة، خيبة الأمل، وهم ينتظرون

لسؤالهم جوابًا، بالقبول أو الرفض، بالسلب أو الإيجاب، بالنفي أو الإثبات، لم أعش أنا أيًا من تلك الأحاسيس، لم تصل بي الإثارة إلى ذروتها، وأنا أنتظر إجابة لمطلبٍ هام في حياتي يؤثر عليَّ، يُحدث تغييرًا في أيامي، أبدًا لم يحرقني الشوق، لم يؤلمني الانتظار، لم أشعر فرحة النصر أو مرارة الهزيمة والانكسار، لم أشعر أيًا من ذلك، ببساطة، لأن كل طلباتي كانت واجبة النفاذ... وما زاد من حيرتي وأثار تساؤلاتي، أنهم أبدًا لم يثوروا، لم يعترضوا، لم أسمعهم أبدًا يتذمرون، يتساءلون، ولماذا هي؟ إننا جميعًا متساوون... لم أرَهُمْ أبدًا يشكون أني قد اخذتُ بعضًا من حقوقهم، شيئًا يخصُّهم، بل على النقيض، كنتُ أراهم يفضلون أن تلبي احتياجاتي قبل احتياجاتهم، وفيما بعد يمكن الالتفات إلى متطلباتهم... ولكن لم يكن هذا هو الحال عند الحديث عنهم هم، ففيما بينهم كانت تدور نزاعاتٌ، مشاحناتٌ، شجارٌ من أجل أولوية الحصول على شيءٍ ما، أو القيام بشيء ما... وحينها بدأت أدرك كم يحبونني، كم يسعون إلى توفير سعادتي، وكم أحبهم أنا... وبدأت أدرك أكثر أنني بالقطع وبما لا يدع مجالاً للشك... مُختلفة.!

عقدتُ العزمَ، استجمعتُ شجاعتي، ذهبتُ إليها، كانت تجلس في حجرتها، وحيدة زائغة النظرات، يطغَى الحزنُ على كل ملامحها، فيزيد وجهها الرقيق جمالاً، فهي جميلة حقًا، بشهادة الجميع، ومن وجهة نظري

أنا أيضًا هي أجمل الفتيات؛ فهي أختي، وأنا أحبها. اقتربتُ منها، رفعتْ بصرَها إليَّ، ابتسمتْ في وهنٍ وذبول، شعرتُ أنني أريدُ أن أرتمي في أحضانها، أختفي بين ذراعيها، أغوص لأختبئَ في أعماق قلبها، أفتش فيه، أحمل كل الحزن الأسود بيدي، أقتلعه من جذوره، ألقيه بعيدًا عنها، وإن لم أستطع، أبتلعه، نعم، أبتلعه أنا، فتعود إليها نضارتها، يعود إليها فرحُها وسعادتها. أما أنا، فسيموت الحزن بداخلي، لن ينموَ، لن يكبرَ، لأن الجميع يحبونني، وهذا يكفيني، وأنا لا أيأس أبدًا، لا أحزن، لا أشعر بألم، لا أشعر بمرض أو سَقم، فكيف ينمو الحزن بداخلي؟ من المؤكد أنه سيموت، سيظل يبحث عن غذاء في شراييني، فلا يجد سوى الفرح، سوى الهدوء، سوى الرضا والطمأنينة وراحة البال، لن يجدَ سوى حبي لعائلتي، لأبي، لأمي، لأخواتي، وخاصة لأختي، لن يجدَ سوى إحساسي بالأمن بينهم... وحين يشتد به الجوع، سيضطر أن يطعم نفسه بعض سعادتي، فيسري سُم الفرح فيه، يصاب بالاختناق من فرط أشواقي، فيموتَ بداخلي، يتحلل إلى ذرات، تترسب في قاع حياتي، فتصنع أرضًا صلبة، ممهدة، تخطو عليها أفراحي، وبدلاً من أن تمشي؛ تركض، تقفز، ترقص، فتزين كل حياتي، وتصبح أيامي شيئًا آخر، جديدًا، تصبح مثلي أنا... مُختلفة.!

لكنها هي من تحتاج إليَّ، نعم، وأنا أشعر بذلك، إذن فلا بُد أن آخذها أنا بين أحضاني، يجب أن أخفيها أنا عن كل العالم، عن كل ما يقلقها، كل ما يحزنها، وكل ما يضنيها... يجب أن تعلم أنني طيلة عمري كنتُ بجوارها، معها، حتى وإن لم تكن تشعر هيَ بوجودي ؛ فقد كنتُ أنتظر اللحظة التي أدركها فيها، أحميها، أحارب من أجلها كل شياطين الحزن، أتسلق من أجلها أسوار الجحيم، حتى أبعد عنها نيرانها...

نظرت إليَّ وقد طال وقوفي أمامها، أنظر إليها ساهمة وقد تداخلت أفكاري، تشابكت أغصان مشاعري، وفاض الحب في أعماقي، تضافرت كل أحاسيسي حتى تصنع لها متكئًا، تستريح فيه، بعد أن ملأ الشوك أركان مضجعها... نهضتْ من جلستها، اقتربتُ منها، تردّدتُ قليلاً، ثم تركتُ يدي ترتاح في يدها الممتدة إليَّ، سألتني إن كنتُ أريد شيئًا، فأشرتُ لها بالإيجاب، نظرتْ إليَّ صامتة، تنتظر إيضاحًا، وجدتني أسبح في بحر أحزان عينيها، ثم ألقيتُ نفسي وسط تيار أشجانها، ارتميتُ في أحضانها، وانخرطتُ في بكاءٍ طويلٍ، حارق، مضن، حزين، صعقتها المفاجأة، شعرت بذهولها، بدقات قلبها التي تسارعت، بأنفاسها التي تهدجت، وبرعشة يديها التي ضمَّتني إليها بقوة وهي تهدِّئ من روعي، تمسحُ على شعري، تُربِّتُ على كتفي برفق وحنان، تحُثني أن أخبرها ماذا حلَّ بي، ماذا حدث، ولماذا أبكي؛ فهذه أول مرة تراني فيها حزينة

لتلك الدرجة، أبكي بهذا الجنون، أول مرة تشعر أن بداخلي بركانَ نار، فيضانًا وجبالاً من هموم. أسقط في يدها، أصابتها الحيرة وهى لا تدري لانهياري سببًا، لا تدرك لانفطار قلبي سرًا، ولا تجد لما نزل بي علاجًا، أخذتني أكثر في أحضانها، أجلستني على حافة الفراش، أراحت رأسي على صدرها، ربط بيننا رافدٌ صبَّت فيه من محيط حنانها لتملأ بحرَ أشجاني، أخيرًا وجدتُ نفسي، أطلقتُ العنان لمشاعري، ومعها أطلقتُ لساني، همستُ إليها بكل ما جاشَ في صدري، صارحتها بكل ما شعرت به حينها، وكل ما شعرت به من قبل، رويتُ لها كل شيء عن ذلك الواقع الذي أحيله، وواقع العالم الذي أتخيله أنا، ويعيشونه هم، رويتُ لها أيضًا عن مفاهيمي، عن عالمي الصغير، عن أحلامي، عن آمالي التي نَمَتْ وترعرعت داخل روحي، وعن كل الأحاسيس التي سكبوها فيَّ على مرِّ الأيام، فاختلطت بعبير أنفاسهم، دفء مشاعرهم، وذلك الحنان الذي أحاطوني به طوال حياتي... رويتُ لها عن أمي وقلبها النابض، عن حنانها، عن أحلامها لنا، وعن عذابها من أجلي، عن ذلك الألم الذي ألمحه في عينيها كلما فاجأتها وهى تنظر إليَّ، فتواري نظراتها سريعًا، أو توليها شيئًا آخر، حتى لا أرى في عينيها الضعف، ذلك الحزن الرهيب، حزن الأم التي تعلم بعظيم مصاب ابنتها... أخبرتها عن القلق الذي أستشعره في لمسات أبي، عن همساته

التي ينقلها عقله إلى وجدانه، إلى قلبه، وكل خلاياه، تلك الهمسات التي تخشى مصيري من بعده، من بعد أمي، من بعدك أنت، ومن بعدكم جميعًا... أخبرتها عن تلك الأماني التي أراها في عينيه، والتي أعرف كُنهها وفحواها؛ فأنا على يقين أنه كان يتمنى لو كنتُ إنسانة أخرى... مُختلفة.!

وأخيرًا؛ واجهتها بحقيقة مشاعرها هي، صارحتها أنني أعلم أن حبها لي مزيجٌ من أخوة وعطف وشفقة... صدق وخوف، وطول ارتباط، وحب صادق عميق، وأنا أحبُ حبها لي وأقدرُ خوفها عليَّ، وأحرصُ على ذلك الرباط الذي يجمع بيننا... أخبرتها أيضًا أنني أشعر عذابها، أحسُ آلامها، أحملُ همومها، وأتمزَّق لأجلها... أخبرتها بالكثير والكثير... ظلت تنظر إليَّ واجمة،

لا تدري ماذا تفعل، كيف تحتوي أحزاني.!

طال صمتها، وبدأت أشكُ إن كانت بالفعل قد فهمت كلماتي، ولأول مرة أدرك أن لغتي قد تكون غير مفهومة بالنسبة لها، فلغتي تشبه الهمهمة، أو الكلمات المعكوسة، فأنا أنطق الكلمات بطريقتي أنا... فأنا... مُختلفة !

شرفة
نصف
مغلقة

وانهارت دفاعاتي

راحتْ تتأمَّل رقعة الشطرنج الممتدة أمامهما بمربعاتها البيضاء والسوداء، مربع أبيض، وآخر أسود، وفيما بينهما فرق واضح، لكن العين لا تلمحه، خُيِّلَ إليها أن المربعات تقترب من بعضها، رويدًا رويدًا، وأنها سوف....

- هل نبدأ ؟

قطعَ صوته الهادئ تأملاتها، فابتسمتْ له وهي تومئ بالإيجاب، ثم بدأ اللعب... هكذا ظنَّتْ في بادئ الأمر، أنها مجرَّد لعبة، ولن تلبث أن تملها بعد أن تشغل بها بعضًا من فراغ أيامها، فتلقيها بعيدًا، أبعدَ ما تستطيع... وحين تحدثتْ إليه، لم تتوقعْ أبدًا أن تفلت خيوط اللعبة من يديها، بل ظنت أنها قد أحكمت الخناقَ عليه، وأنها هي المسيطرة، فهي أكثر من يعرف أسرار اللعبة؛ لكنها، وبعد أول لقاء، وجدت نفسها تفكرُ فيه، حقيقة لم يكنْ حبًا؛ لكنها كانت تفكر فيه، وقد كان هذا بمثابة أول....

- سقط أول جنودك.!

عادت إلى اللعبة مرة أخرى، نظرت إلى رقعة الشطرنج، عدَّلت من خطتها، حقيقة أنها قد فقدت أول دفاعاتها، لكن هذا نذر يسير، فمن الطبيعي أن تفكر في الطرف الآخر من لعبتها، من الطبيعي أن تفكر في... الخصم؛ لكنها وبعد عدة لقاءات، وجدت نفسها تشتاق إليه، تتمنى لو طال بينهما الحديث، لو أصبحا أكثر قربًا، باتتْ تشعرُ أنه جزءٌ من كِيانها، فرضٌ يجب أن تؤديه في كل يوم من أيامها، وبدأت تشعر بالقلق، فهذا معناه أن الأمر جد خطير، وأنها قد فقدت....

– ماتت طابيتك، احذريني!

نظرتْ إليه مبتسمة وهي تحاول أن تفكر في طريقة تستردّ بها مواقعها المحتلة، وتغتصب أراضيه؛ لكنه حين انقطع عنها وغاب، شعرت بالحزن يعتصر قلبها، وراحت تبحث عنه في كل مكان يؤمه، أو يكون قد خطر له يومًا أن يذهب إليه أو يراه، لم تنم لياليها، ولم يعرف من يحيطون بها سر تغيرها، والألم الذي راح يعتريها ويرتسم على ملامحها... وحين عاد بعثت من جديد، عادت إليها الحياة، استردت ورودها نضارتها، وعاد إلى جنتها رونقها، ألقت بنفسها في أحضانه، ظلت تبكي وتبكي، وحين ذاقت طعم الدمع، أدركت أن الأمر قد استحال إلى داء لا ينفع معه الدواء، أدركت أنه قد ملكها، وأنها قد أصبحت أكثر ضعفًا من أن تجادلَ. لقد فتحت أمامه بابًا آخر، فاز بجولة أخرى، لقد....

- مات الوزير، حاصرتك.!

لم يعدْ هناك بُدٌ من الاستسلام، لم يعد هناك مجالٌ للمقاومة؛ فقد لمس ضعفها، أيقن أنها تحبه، وأقسم لها بأنه مِلكُ يديها، عاشقٌ لها، ولا معنى لوجوده بدونها، نامت على صدره، ذابت فيه، امتزجت بخلاياه، واعترفت له بأنها قد فقدت....

- مات الملك.!



شرفة
نصف
مغلقة

عفواً سيدي !

نظرتُ نظرتُ إليها مليًا وهي تجلسُ أمامي، صديقة قديمة اعتادت زيارتي والتردّد عليَّ من حين لآخر، ذات شخصية فريدة، امرأة تجعلك تؤمن بأن لكل شيء حدود، وأن المرأة قادرة على صنع عالمها، وضع قواعده، ضوابطه، وجعْل الجميع يلتزمون بما وضعته من قواعد وفقًا لمعايير ومقاييس تعلمُها هي وتؤمن بها. ولكن - والحق يُقال - هي لم تكن يومًا أنانية، مستبدة، حاقدة، طامعة، تعشق السيطرة أو تسعى إلى الإذلال؛ فما رأيت منها يومًا سوى الرغبة البسيطة في حياة عادية، حرة حرية ترضيها ويرضى عنها الجميع، لها صديقات وأصدقاء، ولكن في حدود... تعشق الحياة وتعيش لحظاتها، ولكن في حدود!

رفعتْ قدح القهوة إلى شفتيها، تسمرت يدُها في الهواء فجأة قبل أن يمسها وكأنها تداعبه، تغريه، تقترب ثم تبتعد.. أو كأنه قد فاجأها خاطرٌ ما فشغلها عن قدحها الذي ينتظر لحظة لقاء يعانقُ فيها شفتيها، خاطرٌ توقفَ له الزمن من حولها لحظات... طرفت بعينيها، ثم رشفت من القدح قليلاً وأعادته إلى مكانه، حانقًا، ساخطًا ينتظر لمسة من يديها، أو

وعدًا بلقاء آخر قريب... وبدون سابق إنذار، ابتسمتْ لنفسها ابتسامة طفيفة لم تكد تولد على شفتيها حتى اتسعت ببطء لتتحول في النهاية إلى ضحكة رنانة، رددت صداها الجدران التي انتشت لاحتواء نغمات ضحكتها، فردَّدتها تدليلاً على فرط سعادتها.!

أخذتني المفاجأة حتى أنني تخيلت أنها قد أصابها مسٌ من الجنون، نظرت إليَّ في وُدٍّ وشبه اعتذار، أدركت أنها قد ألقتْ بي في دوامة من الحيرة والقلق عليها فبادرتني قائلة:

- إنني بحق آسفة على هذا المسلك الغريب غير المقصود، لكن

لو تدري، لقد حدث اليوم شيءٌ ما أخشى إن حدَّثتك به أن تتهمني بالجنون.

تأملتُ قسمات وجهها، هدوءها، صوت العقل في كلماتها، أيقنتُ أنها ما زالت بخير، كما هي، أجبتها:

- إنني أثِقُ تمامًا في رجاحة عقلك وحُسن تفكيرك، وأعلم جيدًا أن كل أفعالك موزونة، محسوبة... حدثيني ولا تقلقي؛ فأنا كما تعلمين لا أصدر حكمًا إلا بعد أن أرى الحقيقة كاملة من كل جوانبها؛ فيكتمل الشكل العام حتى لا أخطئ في حكمي عليها.

نظرت إليَّ طويلاً وكأنها تستشف حقيقة ما يدور داخل عقلي، لكني لم أقل سوى الحقيقة... شعرت بها توازن الأمور، تعيد حساباتها، تحاول أن تصل إلى قرار في نفسها، تحكي أم لا، ويبدو أن ثقتها بي قد انتصرت على خوفها من سوء ظني بها أو عدم فهمي وتقديري فقالت:

- أنت تعلم بالطبع أنني امرأة ناضجة، أبحث عن الحب والحياة والاستقرار. وكما تعلم أيضًا؛ فأنا على علاقة عاطفية كان يفترض أن يكون مآلها إلى زواج.

كنتُ بالفعل على علم بتلك العلاقة التي كانت تحكى لي تفاصيلها وكل ما يستجد فيها، لإشراكي في الأمر أو طلبًا للرأي والمشورة، فأجبتها:

- أعلمُ بالطبع؛ فأنا من أقرب الأصدقاء إليك ـ كما أعتقد ـ وأنت لا تخفين عني شيئا.

أسرعتْ تقول:

- بالطبع أنت من أقرب الأصدقاء إليَّ، إن لم تكن أقربهم، وأنت أول من أحكي له عمَّا حدث اليوم، وقد تكون الوحيد الذي سأقص عليه ما حدث؛ فسأحتفظ به سرًا بيننا، لا يعلمه سوانا.

أدركت أنها تلفت انتباهي قبل أن تبدأ حديثها أن ما سيكون يجب ألا يخرج عنا، يجب أن يظل سرًا بين الأصدقاء... أومأتُ برأسي موافقًا ومشجعًا إياها على الاسترسال في الحديث.

ابتسمتْ وقد زادها تأكيدي على سرِّية الحوار ثقة ورغبة في الحديث؛ فتابعت قائلة:

- كنتُ اليوم على موعد معه قبل أن ألقاكَ، وأصدقكَ القول، فإن العلاقة بيننا لم تكن تسير على خير وجهٍ في الفترة الأخيرة؛ فقد طرأتْ بعضُ التغيُّرات، ظهرتْ بعضُ المشكلات، لكنها مثل كل العلاقات الإنسانية، حب كانت، أو صداقة، أو غيرها، فكل علاقة لها عثرات، ارتفاعات وانخفاضات، لكن في النهاية وببعض الحكمة يمكن تخطي كل هذه العقبات. وكنتُ أعلمُ تمام العلم أن هذه العقبات شيءٌ جائزُ الوجود، بل مؤكد، وإلا ما كان لعلاقتنا معنًى أو مغزًى، طعمٌ مميزٌ أو نكهة، فالتفاهم والتوافق على طول الخط يصيب العلاقة بالملل، يغزوها السأم، والسطحية أحيانًا، مثله في ذلك مثل الاختلاف الدائم الذي يولد اليأس القاتل. لكن ما يجعل للعلاقات زونقًا مختلفًا، وإحساسًا آخرَ، وجاذبيةً لا تقاوم، هو المشاعر المتباينة، المُختلفة، الشوق في البعد، الألم في الغياب، الخوف من الوحدة، والندم في الخصام، فرحة العودة، والسعادة في اللقاء... لن أطيلَ عليكَ، ذهبت اليوم لألقاه، لكني

لم أرَهُ كما اعتدتُ أن أراه، طرأ عليه العديد من التغيرات، كان شخصًا آخرًا مختلفًا، ولا أقصد اختلاف مظهره بالطبع؛ لكن كان هناك شيءٌ قد تبدَّل فيه، ربما يكون ذلك الفتور الذي لاقاني به، ربما تكون تلك البرودة التي أحسستها في لمسةِ يدِهِ حين تصافحنا، ربما يكون ذلك الجليد الذي كسا مشاعرَه فخرجت كلماته تيارًا باردًا يلفحُ وجهي؛ فيرتعد كياني وهو يتحدث إليَّ. وربما تكون تلك النظرة الخاوية التي ظل يرمقني بها طوال اللقاء دون أن تحط عيناه على شيءٍ محددٍ فيَّ... حقًا لست أدري، لكنه كان بالفعل مختلفًا... جلستُ إليه وأنا أتوقع أن يكون لقاؤنا اليوم غير كل ما سبقه من لقاءات، ترقبت حدثًا جللاً في طريقه للوقوع، يُعدُّ له هو، يسبقه بمقدمات بالية، بلهاء، محفوظة ومستهلكة، حدست نفسي ما يودُّ أن يصرِّح به وما يودُّ أن يتخلص من عبئِهِ الذي يجثم على صدره؛ فيكاد يُزهق أنفاسَه، لكنه يخشى عليَّ أثر الصدمة، فيحاول أن يكون رقيقًا إلى أقصى درجة، رفيقًا بي، عطوفًا، رحيمًا، تعيسًا إلى حد الشقاء، حتى يشاركني لحظاتِ ضعفي وانهياري، يظل بجواري حتى يمنعني من الانتحار إن أنا فكرت فيه بعد سماع الخبر الذي سينزل على رأسي كالصاعقة، يزلزل كياني، يدمِّر أحلامي، ينسف عشًا بنيناه معًا لسنواتٍ وسنوات... ظل لفترة ليست بالقصيرة يحدثني عن طابع الحياة، القدر، حتمية اللقاء، والفراق، وأشياء كثيرة من

هذا القبيل... وحين رأى الضجر يتسرب إليَّ، ويطفو على ملامحي، استجمع شجاعته، تمالكَ نفسه، شحذ قواه، استغلَّ كل طاقاته، أعلن وبمنتهى التأثر أنه لا أمل لنا معًا، فنحن مختلفان ولن يجمع بيننا شيء، وأنه قد أدرك منذ أمد أننا لسنا متوافقين؛ لكنه كان يحاول - وبشتى الطرق - أن يقرب بيننا، يبحث عن نقاط لقائنا، يتفادى عيوب كل منا، يجمع بين مزايانا، يرسم لنا طريقًا نمشيه معًا، لا تقاطع فيه ولا منحنيات، لكنه لم يفلح، مُني بالفشل، وبذلك أدرك أنه لا خيار أمامنا سوى الانفصال... حقًا، مسكينٌ هو، حاول وجاهد، تعذب وتألم حتى ينقذ حبنا؛ لكن الحياة أقوى منه، أقصد منا، فماذا يفعل ؟

نظرتُ إليه بوجه جامد يخلو من أي تعبير، اقتربتُ منه حتى كاد وجهانا أن يتلامسا، اتسعتْ ابتسامتي، همستُ إليه بهدوء، بعذوبة، برقة، بحنان لم يعهدْهُ فيَّ من قبل:

- معذِرة، ولكن هذا قرارك أنت، أما أنا فلي رأي آخر، فأنا لا أريد الانفصال.

نظرَ إليَّ بوجه غابت ملامحه بين سُحبٍ وغيوم من دهشةٍ وذهول، جمد مكانه للحظات، راح يحملق فيَّ وكأنه تمثالٌ شمعيٌّ وُضِعَ في محيط ثلجي، فازداد جموده جمودًا، اختفت ملامحه تحت طبقات من بخار ثم - وبصعوبةٍ

بالغةٍ ـ جاهد حتى خرجت الكلمات من فمه متعثرة، بالكاد مسموعة، مفهومة، سألني في بُطء :

- ماذا، تقولين؟

أجبته وابتسامتي تتسعُ حتى ملأتْ وجهي بأكمله:

- أنا.. لا.. أريدُ.. الانفصال.!

عاد إليه بعضُ إدراكهِ وإحساسهِ بما حوله، بعد أن تأكد من حقيقة ما سمعه مني، بدأ جموده يذوب تدريجيًا وهو يسألني:

- كيف؟ ماذا تعنين؟

أجبته بنفس الابتسامة الهادئة الحنون:

- مثل أي شيء، وكل شيء، أنا لا أريد الطعام، لن آكل... لا أريد النوم، لن أنام... أنا لا أريد الانفصال، إذن سنظل معًا.!

تلعثم قليلاً وهو يحاول أن يبدو متماسكًا، بعد أن تضاربت أفكاره واختلط عليه الأمر بعد ذلك الرد المفاجئ، غير المتوقع، ثم قال:

- كيف؟ كيف يكون ذلك، وأنا لا أريد لتلك العلاقة الاستمرار ؟

بادرته قائلة بهدوء حسدتُ عليه نفسي فيما بعد:

- لقد قلتها بنفسك، أنت من لا تريد لعلاقتنا الاستمرار، ولكن ماذا عني أنا؟... من منحك الحق أن تنهي علاقة أنا طرف فيها، دون الرجوع

إليَّ؟... لقد أتيتني اليوم وأنت تحاول أن تكون رقيقًا معي، مشفقا، حانيًا قدر ما تستطيع حتى لا تؤثر فيَّ تلك "الصدمة الرهيبة" فيحل بي سُوء... كنت تتوقع مني أن أبكي، أصرخ، أنهار، أن أتوسل إليك؛ أن راجع نفسك، أعد حساباتك، فكر في مصيري، فكر في حياتي بعدك، بدونك؟... لم تضعْ في حُسبانك أبدًا قراري، لم يكن جوابي هذا ضمن الخطة التي وضعتها، وكان يجب أن يسير اللقاء وفقًا لها، لم يكن ذلك مشهد النهاية الذي رسمته أنت، نسيت أننا قد بدأنا تلك العلاقة معًا، معًا، وليس من حقك أن تتخذ قرار بترها وحدك، فلنعتبرها شراكة لا يمكن فضها إلا بموافقة الطرفين.

- لكنها ليست شراكة، إنها علاقة إنسانية.

- وهذا أدعى أن يحترم كل من طرفيها الآخر، أن يكون لكل منهما رأي، أن يتخذ كل منهما قراره، أن يتوصلا معًا إلى حلّ، لا أن يفكر أحدهما بينما الآخر غارق في أحلامه، يبني آماله، ويرسم مستقبلهما معًا، ثم يأتي الآخر بين يوم وليلة، ليخبره بأن تلك العلاقة لا تناسبه، لا تصلح له، لم تعد تمنحه ما يريد، أصبحت ثقيلة الوطأة على نفسه، لذا فلا بُد من فصم عراها... كلا، أنت لم تضعني في اعتباراتك، لم أدخل ضمن حساباتك، فكرت وقرَّرت، ثم أتيتني لتـُعلمني بقرارك الذي من المفترض أن أقبله صاغرة؛ طائعة؛ مستسلمة، بعد أن روَّضت

... نفسك، عرفت احتياجاتك، رسمت حياتك طبقًا لآخرِ قراراتك،
عسى ... سيكون، ولم يُعد باقيًا أمامك سوى البداية الجديدة، بعد أن
تطوي معي صفحة النهاية، تنهي حكايتك القديمة... أما أنا، فتلقي إليَّ
بكلماتٍ لا بأس بها لتشدَّ من أزري، تواسيني، تخبرني أن الحياة لن
تنتهي من بعدك، وأن سعادتي وقدري سأجدهما مع غيرك، ثم تتركني
وتنصرف، وتحمد الله أن اللقاء انتهى كما خططت له، بكل دقة،
وسرعة، هكذا وبكل بساطة... ولكن يا عزيزي لقد أسأتَ الاختيار،
أسأتَ الفهم، أسأتَ فهمي أنا، أخطأتَ في بعض المعادلات؛ فجاءت
النتيجة خلاف ما توقعته أنت، وأنا على العكس تمامًا، فأنا امرأة لا
تتخلى عن أحلامها بسهولة، ولا تتنازل عن حقوقها، أبدًا.!

نظر إليَّ وهو لا يدري ماذا يقول، أحسستُ باضطرابه، بأن الدنيا كلها
قد اجتمعت عليه فاختلطت عليه الأشياء، ابتسمتُ في قرارة نفسي، لا
أنكر أنه قد أسعدني ارتباكه، فقد حان الوقت كي يعلم أنى لست
لعبة بيديه، آن الأوان كي يعلم الجميع أن المرأة كائن عاقل، حسَّاس ذو
إرادة وقوة، يمكنه التحدي، يستطيع الصُّمود، وله حق الاختيار، له الحق
في النقاش، في الجدال، في اتخاذ القرار، أشفقتُ عليه من تلك الحيرة،
من ذلك الاضطراب، ذلك التيه الذي اعتراه، ذلك الذهول الذي هزَّ
كيانه بعد أن سمع ورأى ما لم يكن في حسبانه هو... طلبت منه

الانصراف على أن نستكمل حديثنا في لقائنا القادم، بعد أن يفكر كل مِنا مليًا، ثم نأتي بحصاد أيام من القلق من التفكير والسهر، حتى نصل معًا إلى نتيجة، إلى قرار... بالطبع حاول أن يثنيني عن عزمي، أن يثبط من عزيمتي، يضعف همتي، مشيرًا إلى أنه ما دام قرار الانفصال قد طفا يومًا على سطح علاقة ما فهذا معناه أنه قد أصبح قريبًا جدًا، وأنه سيعاود الظهور مرات ومرات، وما كان مني إلا أن جاوبته بأننا ما دمنا قد استطعنا أن ننحيه جانبًا مرة، فمما لا شك فيه أننا نملك القدرة على فعل ذلك، مرات ومرات.

ودَّعته في رقة، بل وطلبت منه أن يرافقني حتى هنا وكأن شيئًا لم يكن، كأننا كنا في مجلس حب وغرام، نتبادل كلمات العشق والهيام، نتعاتب بعد طول غياب، وطغت علينا الفرحة فأنستنا كل لوم أو عتاب، كل هم أو عذاب، وزادتنا اللهفة شوقًا، فصارت كل آلامنا وهمًا وسرابًا، وازداد إصرارنا أن نظل معًا لآخر لحظة، تلك اللحظة التي أتيتك فيها، وها أنا ذا، أمامك، فماذا ترى؟... اختتمت حديثها بابتسامة رقيقة، ماكرة، متلهفة، تنتظر مني ردًا..!

نظرت إليها وقد ارتسم على وجهي تعبيرٌ لا أظنه جديدًا عليها، فمن المؤكد أنها قد رأته على وجهه هو أيضًا حين فجرت كلماتها بين جدران عقله، فقد كان ردُّ فعلها صادمًا حقًا حتى بالنسبة لي أنا، وبقدر

دهشتي لذلك الموقف الذي اتخذته ونذرت نفسها للدفاع عنه، بقدر إعجابي بها، وتقديري لعقلها، لحكمتها، لإرادتها وقوة شخصيتها، كيف واتتها الجرأة والشجاعة على فعل ذلك؟.. كيف سيطرت على مشاعر الأنثى داخلها، تلك المشاعر التي تظهر المرأة دائمًا حسَّاسة أكثر من اللازم، ضعيفة، على استعداد تام للبكاء والنحيب تحت أي ضغط، في أي وقت، دائمًا عرضة للانهيار، وبمنتهى السرعة، للصراخ، للعويل، بل وللانتحار إن لزم الأمر؟.. كيف استطاعت أن تبادله الأدوار، وأن تجعله في موقف لا يُحسد عليه على الإطلاق بعد أن كان قد رتب كل شيء، استعد بكلمات مواساة، لمسة يد، ربتة حانية على الكتف، آهة، أمنية رقيقة بحياة سعيدة، ولا مانع من قبلة وداع، ثم يذهب ليتنفس الصعداء في أول شارع جانبي، فقد أنهى مهمته على أكمل وجه، تخلص منها بعد جهد مضنٍ، بعد مشقة وعناء، وقد يكون قد أعدَّ العُدة لصيدٍ جديد، بدأ بالفعل في نصب شباكه حوله، نسج خيوطه حتى يكبِّله، يقيِّده، ويسيطر عليه، فيقع فريسة سهلة دون مقاومة أو جهد؟.. هل كان يتصور أن هناك نساء مثلها روَّضن أنفسهن، تدرَّبهن على التحدي، على الإصرار، المقاومة، وربما الثأر؟.. نساء قرَّرن أن يستعِدْنَ حقوقًا لهن أُهدرت أعوامًا وأعواما، نساء أضناهن الانتظار أزمانًا وأزمانا، تعبن من الإهمال، مللن من عدم الفهم، تاقت نفوسهن

إلى رجلٍ يفهمهن، يدرك حاجاتهن، رجل يريد المرأة فكرًا واعيًا، روحًا وإحساسًا، رجل يمحو من ذاكرة التاريخ كل سُوءٍ حلَّ بامرأة، كل خطأ بُنيت عليه أفكارٌ فصارت حقائق مسلم بها، وكل عذاب عاشته امرأة وهي سجينة عقلها، أسيرة مشاعرها، تكتم رغباتها، تدفن آلامها في أعماق نفسها، تقتل حريتها في مجتمع لا يمنحها إلا القليل، حتى قليلها مشروط، محدود، مرصود يتحين الطامعون أي مناسبة للحد منه، ينتهز الحاقدون كل فرصة للإجهاز عليه، للتدليل على سوء استخدامها له، حتى صارت حدودها داخل نفسها هي أوسع مساحاتها التي تستطيع التعبير فيها بحرية مطلقة عن آرائها، أكثر المناطق أمنًا للإعلان عن نفسها، تحلق فيها بأحلامها، تحقق رغباتها، تلعن من يتسلطون عليها، تحرق من يريدون لها الموت، تتقرب إلى من يتودَّدُون إليها، من يخطبون وُدَّها، يحترمون ذاتها، يتمنون أن ينهلوا من أنهار مشاعرها، يتحرَّقون شوقًا إلى حنانها، يحلمون بالسير في دروب أفكارها، متاهات عقلها، كي يطلعواْ على كنوز معارفها، كلمات أشعارها، أوراق دفاترها، وروائع عشقها، تفرُّ ممن يطمعون فيها، فيضلوا في أروقة قلاعها، ممرات حصونها، وحين يصلوا إلى نهاية، يجدون أنفسهم في سجنها، إنهن نساء تاقت أحلامهن إلى رجل ينظم فيهن الأشعار، يخوض من أجلهن

حروبًا، ولرؤيتهن يقفز حواجز وأسوار، يرى لمساتهن سحرًا، يسمع أصواتهن موسيقى، ويضرب على كل من يقترب منهن حصارًا..!

تراه قد أدرك اليوم أنها امرأة أخرى، امرأة جديدة، مُختلفة... ترى كيف يشعر الآن؟... تراه يشعر بالحيرة، يشعر بأنه قد وقع في مأزق، في شرك لا يستطيع منه فكاكًا؟.. هل يشعر أنه صيد حبيس، كان يظن نفسه صائدًا ماهرًا، اقتنص فريسته، حبسها، دخل إلى القفص حتى يأخذ ما لا يملك.. طاب له المقام، استكان ونزلت عليه السكينة، نعِمَ براحةٍ مؤقتة، أرضى غروره وحقق رغباته، ونظر حوله فلم يجد صيده، وحين أراد الفرار أدرك أن الباب موصودٌ، أغلقه هو بيديه، وأحكم إغلاقه، فأدرك أنه لا بُد ماكث في انتظار عقاب، بينما راح الصيد يجري ويمرح، يقفز مستمتعًا بحريته؟... هل يشعر أنه قد أخطأ التصويب فأصاب هدفًا حصينًا لا يخدش، فارتدت رصاصته إليه، استقرت في جنباته؛ بين ضلوعه، في أعماق قلبه، وفي مركز كبريائه، فنزفت جراحه بعد أن أدماها بيديه؟... هل يدرك أنها لم تكن تتمسك به ـ في المقام الأول ـ دفاعًا عن حب كبير، محاولة يائسة من قلب كسير، أو حرصًا على حلم بنته في لحظة هيام ظنت حينها أن الفراق مستحيل... بل كانت تتمسك بحقها فيه، بحقها في علاقة نشأت بينهما، أخذ نصيبه منها، واكتفى، أما هي فلم تكتف بعد، لم تصل حدَّ الإشباع، لذا فمن المحتم عليه أن يظل

معها، أن يلازمها، تمامًا كما كان، حتى تعلن أنها قد اكتفت بدورها، وتقتنع أن العلاقة لا جديد فيها، لا منفعة منها، لا أمل لها، وحينها فقط يكون الانفصال؟... هل كان يدرك أن الأمر أكبر بكثير من كونه حالة حب، وأنه كان دفاعًا عن كبرياء، عن وجود وكيان، فهي ليست لعبة بيديه، يحتضنها حين تثور في نفسه الرغبة، يضمها إليه بكل ما أوتي من قوة، وحين يزهد فيها، يتركها تفلت من بين يديه، يلقيها تحت قدميه، يسحقها، فتتناثر اللعبة، حطامًا وأشلاءً؟... لكنها اليوم أكدت له أننا في زمن جديد، زمن عادت فيه المعجزات، فحين أسقط اللعبة من يديه، متظاهرًا أنها قد سقطت سهوًا، تجمع كل الحطام، التأمت كل الأشلاء، تماسكت كونت هيكلاً عملاقًا، كائنًا يبلغ في قوته أضعاف ما كان، وقف أمامه، فحجب عنه شمس النهار، نظر حوله فلم ير سواه... أدرك أنه قد صار محاصرًا، أيقن أن هذا فعل يديه، وأنه وحده من خلق مخاوفه، وزرع أشجانه، هو وحده من أساء تقدير نفسه، وبخس غيره قدره، هو وحده المسؤول!

انتزعت نفسي من دائرة تأملاتي، جذبتني نظراتها الهادئة، الثابتة، المليئة بالإصرار والتحدي، بعد أن كدت أغرق في تيار أفكاري فلا أجد لي متنفسًا وأنا أرسم في ذهني صورة لما سيكون عليه لقاؤهما القادم،

المثير... وطرأ برأسي خاطرٌ ما وددت لو سألتها عنه، لكني ترددت قليلاً،
ثم همست إليها في خجل واضطراب:

- أريد أن أسألك شيئًا، لكني أخشى أن أجرح مشاعرك بكلماتي.

جاوبتني على عجل وبنفس الابتسامة الهادئة :

- لا تخش شيئًا، سل ما تشاء فليس بين الأصدقاء حرج، هيا فكلي آذان صاغية.

زاد اضطرابي وأنا أحاول أن أنسق كلماتي، أزينها، حتى لا تبدو جافة مؤلمة، ولم ألبث أن أفضت إليها بما في صدري قائلاً :

- لقد عرض عليكِ الانفصال فأبيت، رغم أن عرضه قد تضمن إيضاحًا بأنه ـ وأستميحك عذرًا ـ لم يعد يحبك، ومع ذلك فقد تمسكتِ به، وتشبثتِ بالعلاقة التي كانت؛ أو مازالت؛ بينكما، ولكن ـ وأكرر أسفي واعتذاري ـ أين كرامتك؟.. أين عزتك؟.. أين كبرياء نفسك؟.. كيف تحرصين على الاستمرار في علاقة يرفضها هو، وأنت تعلمين أنك غير مرغوبة، صرت تشكلين عبئًا عليه، ذكرى غير محببة إلى نفسه... كيف ؟

نظرت إليَّ نظرة طويلة متمعنة، قرأتُ فيها أنها كانت تود لو كنتُ استطعت أن أفهمها أكثر من ذلك، لو كنتُ أستطيع أن أقرأ أفكارها، لكن الأمر بالفعل كان قد اختلط عليَّ، لم أعد أرى أسبابًا، أفهم دوافعَ،

أنتحل أعذارًا، أو أحدد اتجاهات... مالت إلى الأمام قليلاً حتى يتجه حديثها إلى عقلي مباشرة، ثم قالت :

- أولاً : هو لم يعرض عليَّ الانفصال، بل قرر الانفصال ثم جاء كي يعلمني بقراره الذي لا رجعة فيه، لا فرصة أخرى لنقاش، لجدال أو مراجعة، فقط عليَّ أن أنفذ ما أمرت به.

ثانيًا : فإن كرامتي وعزة نفسي هي التي جعلتني حريصة على التمسك بتلك العلاقة ولا شيء سواها، فكما تعلم فأنا لست امرأة تندفع خلف عواطفها فتتسوَّل الحب وتترجَّى الحنان، كما أنني لست امرأة بلا شخصية يتم اقتيادها حيث يريد رجلها، وبعد فترة ـ طالت أم قصرت ـ يتركها وحيدة في أي مكان، لمجرَّد أنه قد وجد من هي أكثر منها فتنةً أو جمالاً، أو من تملك ما لا تملكه هي، وينسى أنها تملك أشياءً لا يملكها الآخرون. إن كبريائي يجعلني حريصة على حقي في تلك العلاقة، أن تكون لكلمتي وقراري نفس تأثير كلمته وقراره، أن يعمل برأيي تمامًا كما يعمل برأيه، يجب أن نكون على قدم المساواة... ثم من قال أن في تمسكي بحقوقي واحتفاظي بكياني وقوة إرادتي امتهانًا لكرامتي، إنقاصًا من قدري، أو إذلالاً لكبريائي؟... إن امتهان كرامتي يتمثل في خضوعي واستسلامي وتنازلي عن حقوقي، وإذا كانت المسألة تتعلق بالكرامة، فأين تذهب كرامة الرجل وأين يكون كبرياؤه حين يعدو خلف المرأة

أميالاً، يطاردها، يبثها غرامه، يشكو إليها نار الشوق وحرقة الآهات، يخط لها الرسائل، يعطرها بدموعه، يوقعها بدم نزفه قلبه حزنًا على بعدها عنه وتجاهلها له، يطاردها فترفضه، يلهث خلفها، فتنبذه، لا يفقد الأمل أبدًا، يحاول مرة وأخرى ومرات، حتى يفقد الأمل، أو ترقّ هي لحالِهِ وتتألم لقسوتها عليه فتشفق عليه حين تتأكد من حبه لها وصدق عواطفه نحوها؛ فتقبل به شريكًا وتتخذه حبيبًا وتفتح أمامه الأبواب ليدخل جنتها؟.. أين كرامته إذن بين رفضٍ وصدٍ، كبرياء وعناد، وبين تحدٍ واستعلاء؟.. أين تكون كرامته في كل تلك اللحظات، أين؟... أجبني يا صديقي الرجل.!

استعصتْ عليَّ الكلمات، أردتُ النطق فلم يستطعْ لساني، وكلما حاولت ترتيب أفكاري داخل رأسي؛ ينفرط عقدها، تهرب مني، تدخل إلى الحجرات المظلمة في أزقة عقلي، يختبئ كل منها في ركن بعيد حتى لا أضطرها إلى الخروج، إلى المواجهة، مواجهة تلك النظرات الثاقبة، ذلك الصوت الهادئ، تلك الرؤى المنطقية، السلسة، المتتابعة، المتوعِّدة. وأدركت هي بفطنتها أنها قد امتلكتني، انتصرت عليَّ، وأنى قد عجزت عن المواجهة أو حتى الدفاع، فلا حُجج لديَّ ولا براهين ولا أدلة، فازت في أولى معاركها في عالم تصنعه هي، تشهد تكوينه ولحظات ميلاده، عالم سيولد على يديها، تعد له المهد، تنتظر قدومه على أحرِّ من

الجمر، فوليدها هو مستقبلها، حاميها، خادمها وسيدها، هو من سيدرأ عنها كلَّ سُوء، ويدفع عنها كل شرٍّ أو بلاء.!

ودَّعتها وأنا أتمنى لها التوفيق، ثم ابتسمت في مودة وهى تصافحني وتشدُّ على يدِي... لا أدري لماذا أصابني الاضطراب فجأة، فنظرتُ إليها مؤكدًا أننا بالطبع متفقون، بل حُلفاء.!

شرفة
نصف
مغلقة

آخـر مـرة

انتفضت في ذعر لرنين الهاتف الذي وُضع ملاصقًا لفراشها منذ خروجها من المستشفى، ذلك الهاتف الذي لم يتوقف أبدًا عن الرنين، الأهل والأصدقاء والزملاء، الكل يريد الاطمئنان عليها ومعرفة أخبارها، الكل يشد من أزرها ويواسيها في مصابها، الجميع يلومون عليها لغفلتها، مما تسبب في انزلاقها وفقدان جنينها، الجميع يتحدثون، ولا أحد يعلم حقيقة ما ألمَّ بها.!

منذ أول يوم عرفته فيه أقلقتها القسوة في نظراته، تلك النظرات الحادة التي تخفي غضبًا جامحًا مكتومًا في قلب تنقصه الرحمة، حتى في أوج لحظات حنانه، لم تعتقد يومًا أن تلك القسوة ـ التي ظنتها قسوة مشاعر سيمحوها الحب ـ قد تتخذ طريقها إليها هي ذاتها، وبصورة مباشرة، في صورة تعبيرٍ جسديٍّ، مؤلمٍ دائمًا، ومبرحٍ أحيانًا.!

نعم، لم يتورعْ عن ضربها، كان العنف هو أقرب وسيلة وأقصر طريق لإنهاء أي اختلاف في الرأي، أو أي خلاف يقع بينهما، حاولتْ أن

تقنعه أن يغير من طريقته معها، لم يستجبْ، حاولت أن ترغمه على التغيير بتركها المنزل أيامًا وأياما، وكان يعود إليها؛ يرجوها، يقبل يديها، يعتذر عن ثوراته، غضباته التي لم يتحكم فيها، ويعِدُها أن ما كان لن يتكرَّر مهما طال الزمن، ومهما وقع بينهما من خلاف... ودائمًا، كانت تسامحه، ويعود كل شيء كما كان، كل شيء، فتعود هي كما كانت، محبة، عاشقة، مسامحة... ويعود هو - كما كان - محبًا، سريعَ الغضب، يده هي وسيلته الأولى للتعبير.!

تحمَّلته، لأنها أحبته... كثر انزلاقها في المنزل، أثناء التنظيف، أثناء صعودها سلم البناية، أو أثناء هبوطها من السيارة، كان انزلاقها مبررًا لتلك الكدمات التي أصبحت أحدَ معالمها الأساسية، والتي لم تفلحْ أدوات الزينة في إخفائها، وكثيرًا ما رأت من نظرات الأم والأقارب والزملاء، ومن كلماتهن؛ ما يفيد بأنها لا يجب أن تستمر فيما هي عليه، من إهانة لذاتها، وتعذيب لجسدها.!

تحمَّلته، لأنها أحبته... وحين علمت بخبر حَمْلِها، طارت بهما الدنيا من الفرح وأدركت حينها أن سبب التغيير قد جاء وحده، بلا ترتيب، وبلا ميعاد، فإن لم يَخَفْ عليها، سيخاف عليه هو، على طفله، الذي ظلا

يحلمان به منذ زواجهما، والذي شاء القدر أن يتأخر قدومه إلى الحياة، ثلاث سنوات.
وبالفعل، صار أكثر رقة، صارت كلماته أكثر عذوبة، نظراته أكثر نعومة، ولمساته أكثر حنانًا، وإن ظلت قسوة ردود أفعاله وسرعة انفعاله، تسيطر عليه، لكنه راح يفرغ طاقة غضبه فيما هو حولها، أصبح يحطم الأشياء، حتى لا يحطمها، ويحطمه معها.!

وسرعان ما تغلب طبعه عليه، عاد كما كان سابقًا، وأصبح كل ما يشغلني أثناء عراكنا، أن أهرب منه، وإن لم أستطع، كنتُ أتكوَّر على نفسي، حتى أتقي ضرباته بعيدًا عن جنيني، طفلي وأملي في الحياة... ورغم كل محاولاتي، لم أفلح في الحفاظ عليه، فاض به الكيل، بعد أن تألم لآلامي، بعد أن ذاق مرارة دموعي، وشعر بأوجاعي، لم يشأ أن يخرج لتلك الحياة، خاف أن يكون مصيره مثل مصير أمه، وما تلاقيه من ألم وإهانةٍ وعذاباتٍ وضربٍ مبرحٍ... أُصبتُ بنزيفٍ حادٍ بعد سقوطي أثناء تنظيف المنزل، أفقتُ في المستشفى، كنتُ في غيبوبة تامة، وعلمتُ بعدها أنني كنتُ بين الحياة والموت، كذلك علمتُ أنني قد فقدته، بل فقدتهما.!

فقدت جنيني، ضاع مني بعد انتظار السنوات، فقدته، لأن أباه لم يستطع الانتظار حتى ننعم بلحظةِ خروجهِ إلى النور... فقدته، وفقدتُ معه كل رابطٍ وكل رغبةٍ كانت لي في أبيه، لم أعدْ أحتمل النظر إليه، لم أعدْ أطيق صوت أنفاسه، ولو كانت بعيدة عني...، صار شعوري بوجوده قريبًا مني يجثمُ على صدري، يطبق على أنفاسي، يصيبني بالاختناق، ويقْتل فيَّ كل أمل أو إحساس.!

لم يكنْ سهلاً عليَّ ما وصل إليه حالنا، بعد كل ما كان بيننا من حُب، بعد كل ما حملته في قلبي له من عشق، بعد كل ما تحمَّلته من أجله، وما عانيته معه، لم تفلح أعذاره هذه المرة، لم تستطع كلماته أن تنسيني ما حدث، ولم أعد قادرة على تحمل المزيد، لم تَعُدْ لي رغبة في الاستمرار، ولم يَعُدْ لديَّ ما أفقده بانفصالي عنه... نعم، كان لا بُد من الانفصال، حتى أحافظ عليه، ولربما يتغير، وأحافظ على نفسي، ولربما أنساه.!

لا تدري لماذا انتفضت في ذعر لرنين الهاتف، ربما لأنها كانت شاردة الذهن، غارقة في الذكريات، وربما لأنها كانت تشعر، بل كانت على يقين أنه هو، أجابت مطلبه حين طلب لقاءها، وحدهما، حتى يحادثها، يحاولا حلَّ خلافهما، وتعهد لها بالتغيير، وإجابة كل مطالبها.!

جلستْ إليه، استمعتْ إلى حديثه، ردَّد عليها ما توصَّل إليه: مخطئ هو، شيء أكيد... سيتغير، هذا ما سيكون... سيعود إلى إهانتها وضربها، هذا هو المستحيل.

ارتجف قلبُها لسماع صوته، هزَّتها كلماته ووعوده، أخبرتها نفسُها أن تمنحه الفرصة الأخيرة، أدركتْ أنها لا تزال تحبه، ضحكتْ من نفسها، نظرت إليه، انتفض قلبها، أفزعتها تلك القسوة في نظراته، حتى في طلب السماح، تذكرت في لحظات كل ما كان، جرح نفسها، آلام جسدها، لون الدماء، أسيرَّة المستشفى البيضاء، انهيار الحلم... تذكرت جنينها، تذكرت كيف مات قبل أن يرى الحياة، دون ذنب أو إثم، سوى أنه... كان سيكون ابنًا لهذا الرجل.!

تركتْهُ، صارتْ مبتعدة، أعلنتْ النهاية، لقد فقدها للأبد، فقدها بقسوة قلبه، ونظرات عينيه... اعتصر الحزن قلبَها، أطلتْ من رأسها كل ذكرياتهما معًا، توقفت فجأة عن المسير، نظرت خلفها، وجدته لا يزال هناك، واقفًا ينظر إليها أثناء ابتعادها، حائرًا، يائسًا، استدارت ببطء، عادت إليه بخطواتٍ وئيدة، ثم أسرعت في خطاها، ابتسم لها، مدَّ إليها يده، أن سامحيني؟... نظرتْ في عينيه، مدَّت إليه يدها، وضعت في يده خاتم الزواج الذي كانت قد نسيته معها.!



شرفة
نصف
مغلقة

عملات

- ١ -

أضناها التعب من طول التحديق في وجه القمر، اتسعت حدقتاها حتى كادت أن تخرج عيناها من محجريهما، ظلت تنظر وكأنها ترى في ذلك الضوء الفضي ما لا يراه غيرها، وكأنها تسبر الغور بسهام نظراتها، تحاول أن تقرأ طالعها لترى ما تخبئه لها الأقدار، ويخفيه عنها الزمن.

فقيرةٌ هي؟... نعم ، فهي لا تملك قوت يومها، يأتي عليها النهار وهي لا تدري كيف سيمر هذا اليوم، وكيف ستكون نهايته... تنتظر الليل ليسدل ستائره على همومها ومتاعبها، حتى تستريح من عناء التفكير، وتطوي صفحة أخرى من صفحات أيامها.

وحيدةٌ هي؟... نعم، فليس لها من حطام الدنيا سوى أب عجوز، عجز حتى عن الحياة منذ زمن، هو كل ما تبقى لها وكل ما تملك.

جميلةٌ هي؟... نعم، فقد استدار قوامها، وبرزت ملامح أنوثتها، وصار جسدها فتنة ومحضَ اشتهاءٍ للأنفس، للرغبات المكبوتة... إلا أنها لم تفكر يومًا إلا في ذلك العجوز، في احتوائه ورعايته، كانت تفكر كيف

تجعل الأيام تمرُّ دون أن يشعر أنهم في حاجة، وأنها لا تستطيع تدبير ضروريات الحياة... وكثيرًا ما حاولت الأعين الطامعة المساومة والإغراء، إلا أنها كانت تتحمل من أجل أبيها، ومن أجله هو أيضًا، فمن قال إن الفقر يمنع الحب، قد يؤجله بعض الوقت، لكنه هناك، دائمًا موجود، فما أشد حاجة الفقراء إلى الحب، ما أشد حاجتهم إلى نقطة حنان في محيط أحزانهم وقسوة حياتهم مع شظف العيش وحاجاتهم.

أحبته بلا بدايات، بلا مقدمات، ودون أن تدري، لم تسأل نفسها يومًا، وماذا بعد؟... ولكن منعها الخجل عنه، حالت ظروفها المستحيلة دون البوح بمكنون قلبها وأسرار عشقها... وحين تقرب إليها هو، وحين أفضى إليها بما يحمله لها من غرام، من حب وهيام، وحين شكا إليها مدى حاجته إليها، لم تملك جوابًا سوى الدموع التي سالتْ حارَّةً، سعيدةً، خائفةً؛ فأنبأته بالرد المنتظر... وهكذا الفقراء، لا يملكون سوى الدموع ثمنًا لكل لحظات سعادتهم أو ضيقهم، عند شعورهم بالعجز أو الفرح، باليأس أو الأمل... وكم تمنَّت هي الحب، وكم آلمها بعده عنها، كم حلمت بلحظات تسبح فيها وسط فيض المشاعر التي ستنسيها كل ما مرَّ بها، مرارة حاجتها وعذاب وحدتها بين جدران أربع وأب مريض لا يقوى على الحركة أو حتى الكلام، فكم حاورت تلك الجدران وكم جاوبها الصَّمت بصدًى لآهاتٍ لا تُطاق، لا تحتمل... كم

اشتاقت للحب، كم رأت القمر رجلاً، فارسًا يأتيها، يحملها بين يديه ليغيب بها بين طياتِ السماء، يخفيها عن الأعين، بعيدًا عن الأرض، عن همومها، عن آلامها وعذابات نفسها.
كانت تتأمَّل حياتها فتجدها خاوية، ضائعة، تائهة حزينة، قاحلة كصحراء تمتد بطول أيام عمرها، صحراء جافاها المطر منذ زمن فصارت قفرًا بلا حياة، كانت ترنو إلى الحب كزهرة تنمو في جفاف أيامها فتحيل جدب مشاعرها إلى خضرة دائمة، إلى نضارة ينعشها بريق الأمل، همس المشاعر، لهفة الشوق، ولمسات الحنان... كان الحب بالنسبة لها أملاً أخيرًا، طوق نجاة، تعويذة سحر تغير مجرى حياتها، تأخذها من دنيا إلى دنيا، ومن حال إلى حال.

انتظرت في صبر، كانت تؤمن أن الحب قادم لا محالة، لم ينقطع أملها أبدًا، ولم يسعها سوى الانتظار... وها قد آتاها هو، حالًما، راغبًا، عاشقًا، متيمًا... ومنذ ذلك اليوم لم تفكرْ في سواهما، العجوز وهو، كانا كل ما تمنت وكل ما امتلكت يومًا، لكنه كان مثلها، فقيرًا، يشكو الحاجة، مازال يبحث عن عمل، يريد أن تقبل عليه الدنيا، يملُّ الصبر، ويخنقه الانتظار، ساندته، شدَّت من أزره، طلبت منه السعي، رجته أن يتحلى بالصبر، وسألته أن يتحمل ألم الانتظار، وكم ضاق هو بتلك الكلمات، فما نهاية السَّعي؟ مكانة متواضعة وموارد محدودة... وإلى متى الانتظار؟

إلى نهاية العمر، حتى يفنَى الشباب ويمرّ قطار العمر، ولم يهبط هو أيًا من محطاته، ولم يعرفْ شيئًا عن دنياه.

ولكن.. من منا يعلم الغيب، من منا يتنبأ بالأقدار، ومن منا يقرأ المكتوب، فقد ازدحمت حياة كليهما بأحداث لم تخطر أبدًا ببال.!

❁❁❁❁❁

- ٢ -

بعد أن أوصته بالصبر والتحمل، بالاجتهاد وطول البال، أتت نصائحُها ثمارها، واستطاع الحصول على وظيفةٍ بإحدى شركات الصرافة الخاصة، كان العمل مرهقًا بحق، فقد رأى صاحبُ العمل أنه ما زال شابًا قويًا، أعزبًا، لذلك فضَّل أن يضعه في جدول العمل الليليّ، فهو في مقتبل العمر وقادرٌ على تحمُّل السهر، كما أنه ليس لديه زوجة أو أطفال يتضررون من عدم عودته أو قضائه الليل بأكمله في العمل... ورغم كل ما لاقاه من تعبٍ وكل ما أصابه من إرهاق، إلا أنه قد أدرك أنه قد وجد نفسه أخيرًا، بدأ في صعود أولى درجات السُلم حتى يحقق أحلامه وطموحاته اللا محدودة، وبدأ يرسم لنفسه خطوات ارتقائه، بقية درجات السلم، ذلك السلم الذي سيقوده إلى كل ما كان يبغي، وما ظل العمر يحلم به وينتظره، وهو يعلم أنه قادمٌ، لا بُد قادم.!

أما هي، فقد تعثرت بها الحياة بعد أن مات العجوز، وراح كل ما لها، ضاع كل ما كانت تملك، جردتها الحياة من كل شيء ولم يبق لها، سواه،

فلم يترك لها العجوز سوى فقرًا لا تلومه عليه، وآلامًا يصعب عليها تحملها، فرغم أنه لم يكن يشاركها الحياة، إلا أن شعورها بوجوده معها كان يكفيها... لم يترك لها سوى عذاب الوحدة التي راحت تتسرب إليها وتغزو كيانها، خاصةً بعد انشغاله عنها في عمله الجديد، ولم تكن تدري ما بدأ يجول بخاطره هذه الأيام، فقد أصبحت بالنسبة له قيدًا، عائقًا لطموحاته، حدًا لأحلامه، فهي فقيرةٌ، لا تملك شيئًا، وإن وافقها على الارتباط فسيضطر حتمًا إلى إعالتها، فتهوي أحلامه وتتحطم على صخور الحاجة، وتتبخَّر آماله، فتمتد حياته من فقر إلى فقر، ويصبح أغلى أحلامه وأعظم أمانيه الستر... هو يحبها، لكن حياته ومستقبله أهم، أولى باهتمامه وجهوده، فحبه وحده لن يكفيه كي يحقق ما يتمناه، وما لن يرضى عنه بديلاً، لذا آثر أن يرجئَ التفكير فيها أو الحديث عن مستقبلهما معًا حتى يخطط لحياته، حتى يضع التصوُّرَ النهائيَّ لما هو قادم، ويرى إن كان لها دور فيه، أم أنها ستكون من المستبعدين.!

وزاد من مصائبها نظرات مالك المنزل إليها، نظرات طامعة، راغبة، تنهش جسدها كلما وقع بصرُه عليها، بل إنه بدأ بالفعل يتحرَّش بها، وهي وحيدة لا تدري ماذا تفعل، فهي لا تستطيع أن تتبع نداء كبريائها وثورة كرامتها، وتترك الحجرة التي تقطنها وحيدةً بعد موت العجوز وترحل، وهي لا مأوًى لها وليس لها من دونها ملاذ... حاولت الصُّمود

قدر ما تستطيع، حاول معها؛ بالإغراء مرة، بالترغيب مرة، وبالترهيب مرات، حتى فاض الكيل، وفقد الأمل في استدراجها والحصول عليها فطردها من المنزل، تركها تلقَى مصيرها وحيدة، بلا مُساعد أو مُعين، لم تفكّر لمن تلجأ، فلم يخطر ببالها سواه لتذهب إليه، ولمن سواه تذهب، وهي في ذلك العالم كالنبت الشَّيطانيّ، لا جذور له ولا أصول، لا فصيلة له ولا امتداد، ينمو وحيدًا، ويموت وحيدًا، وهي التي عاشت وحيدة، لكنها أبدًا لن تموت وحيدة، لن تترك الحياة كضيفٍ حلَّ عليها، جاء وذهب، بلا أثر، بلا بصمات، فقد وهبها الله إياه حتى يجعل من نبتها الشَّيطانيّ شجرة وارفة الظلال، حتى تمتد جذورها إلى الأعماق وتأتي من بعدها فصائل وسلالات، فالله أعلم منها بضعفها وحاجتها وحرمانها، ولذلك أنعم به عليها حتى يعوضها طول شقائها.

ذهبتْ إليه، طرقتْ بابه، طلبتْ منه الغوث، سألته المساعدة، تمالكت نفسها حتى لا ترتمي في أحضانه باكية حين يمد إليها يده ويدعوها إلى جنته، إلى سعادة لم تبلغها إلا بشق الأنفس... نظر إليها في قلق، أصابه التوتر، تلعثم وهو يخبرها بحرج موقفه، وأنه لا يستطيع مساعدتها في الوقت الراهن، فهو مثلها تمامًا، لا يملك لها عونًا، مكتوف الأيدي... رجته أن يجد لها مكانًا يأويها حتى تعثر على عمل يعينها على إعالة نفسها، طلب منها أن تتدبر أمورها حتى تمرَّ أزمتها، وبعدها يمكن

[illegible] أين تبيت ليلتها...
[illegible] ن تجد حلاً، وأن تهدأ
[illegible] الذي يشل تفكيرها
[illegible] رتْ بمخرج، لاحظتْ أنه
حتى [illegible] طلبها، رأت نفسها وقد
أضحت [illegible] مبتذلة. شعرت [illegible] هانه لتوسلاتها ودموعها، نعم
عاشت فقيرة لكنها أبدًا لم تكن ذليلة لأحدٍ أيًا كان، حتى هو... طلب
منها الاهتمام بنفسها، شكرته ووعدته بتدبُّر أمرها، ثم انصرفت...
وكان هذا آخر عهده بها!

- ٣ -

سارت به الحياة في تتابعٍ رتيبٍ مُمل، كان يرى سيرها بطيئًا قاتلاً، كان يسعى إلى التنقل بين المناصب، إلى ارتقاء السلم قفزًا حتى يُرضي غروره ويحقق طموحاته، وفي سبيل ذلك سعى بكل طاقاته، واستخدم كل وسائله، عمل واجتهد، تنازل ونافق، حتى أصبح من أبرز موظفي الشركة وأقربهم إلى رئيسها، وفي كل يوم كان يتعلم الجديد ويكتسب مهاراتٍ وفنونًا، ثم حقق الحلم نفسه، سعت إليه آماله، قدَّمت إليه نفسها على طبق من ذهب، ولم يكن باقيًا أمامه إلا أن يغتنم الفرصة ويمد يده ليقطف ثمار الجنة التي تدلت أمامه بفروعها، ناضجة شهية، تنتظر من يقطفها، وبالطبع فقد كان هو أحقّ بها من غيره، طبقًا لقوانينه الخاصة، وقواعد عالمه!

تمثلت تلك الثمرة في ابنة صاحب الشركة، كان الرجل هادئًا، وقورًا، طيبًا، يحبه، ظنًا منه أنه مثالٌ للتفاني في العمل والتواضع والإخلاص، وكانت ابنتُه ـ كمعظم أبناء الأثرياء ـ تستكمل دراستها خارج البلاد،

وهبطت عليه فجأة في إحدى الإجازات، ولم يكن حتى ذلك الحين يعلم بوجودها، وحين استدعاه رئيس الشركة لكي يكون لها مرافقًا ومعينًا فترة وجودها بالبلاد؛ كاد يطير من الفرح أو يسقط مغشيًا عليه من السعادة وهو يتأمَّلها، كانت جميلة، ملفوفة القوام، أنيقة، مثقفة، وفوق كل ذلك، ثرية، إنه الحلم تجسده امرأة... ألهبت خياله الأفكار والأماني وهو يتخيل حاله بعد أن تمَّ الزواج وصار صهرًا لصاحب الشركة ـ التي أصبحت شركته بعد أن تزوج ابنته الوحيدة وراح يديرها بطريقته هو ـ واتخذ مكانه بين علية القوم، جمح به الخيال، فرأى الشركة وقد صارت شركاتٍ ومشروعاتٍ وأرصدةً وحساباتٍ، ثم رأى نفسه وقد تضخمت أرصدته وملَّ العمل، فترك شركاته ومشروعاته لمن يديرها وتفرَّغ هو لإنفاق ما جمعه من مال، وأصبح كل همِّهِ أن يحسب لأيامه جيدًا حتى يجد الوقت الكافي لإنفاق ذلك الكم الهائل من الثروة.

ابتسم لنفسه وقد أدرك أن حلمه قد تحقق بلا شك، فلا يمكن أن تكون تلك مصادفةً بلا معنًى، بلا هدفٍ أو مغزًى، حتى وإن كانت، فيجب عليه استثمارها لصالحه، لم يتبقَّ أمامه سوى خطوات يجب أن يبادر باتخاذها، بعد أن يعد عُدته ويضع خطته، فكل ما هو قادم يعتمد على مهارته وحُسن تنظيمه، وإعداده يعتمد عليه هو وحده.!

تغير نظام حياته اليومي الذي كان يتبعه منذ التحاقه بالعمل، تبدل نشاطه، وبدلاً من الذهاب للشركة مبكرًا ومباشرة عمله، صار يتأنّق ويتعطر كي يمرَّ عليها ليصحبها في جولاتها المتعددة التي تقطع فيها الأرض شرقًا وغربًا بلا تعبٍ أو كلل، وكان هو يبالغ في إظهار اهتمامه بها، تنفيذ رغباتها، ورعايتها، لكنها أحيانًا كانت تتركه وحيدًا، أو تطلب منه الذهاب ثم العودة لملاقاتها في مكان ما وموعد تحدده هي، وكان ذلك يسبب له شعورًا بضيقٍ عارم، ليس لأنه يحبها بالطبع، ولكن لأنه لا يريد أن يغيب عن ناظريها ولو للحظةٍ حتى تعتاد وجوده بجانبها وأينما نظرت تراه معها، فيبدأ انشغالها به حتى وإن لم تدرك هي ذلك، وبعدها لن تستطيع عنه افتراقًا... كما أنه كان يخشى أن ترى في غيابه مَن يلفت نظرها، مَن يشد انتباهها، مَن يجذبها إليه، وقد تحبه، وحينئذٍ (........!)، لكنه لن يسمح لذلك أن يحدث أبدًا.. نفض عن رأسه تلك الأفكار السوداء التي من شأنها أن تحبط آماله وتوهن من عزمهِ، راح ينظر إلى مرآة نفسه فيراه وقد وصل الآن إلى منتصف السلم، ولم يتبقَّ أمامه سوى خطوات قليلة، أقل بكثير مما مضى، كان اقترابه منها يعجل بقفزاته ويدفعه إلى قمة السلم، إلى اعتلاء عرش حياته، وحياة الآخرين، أصبحت الحياة تسير مجتمعة بكل قواها كي تدفعه ليلحق بالركب المنتظر، ليلحق بهدفه، يمسك بخيوط أقداره،

فيحركها كما يشاء، مَن قال إنه لا يمكننا التحكم بأقدارنا؟.. سيصنع قدره وربما أقدار آخرين معه، فسيكون هناك العديد من الحيوات التي سترتبط بحياته هو، وسيكون اندفاعه للأمام سببًا في اندفاعهم خلفه، فخيط أقدارهم قد أصبح واحدًا، يربطهم معًا، ووقتها فقط، سيرفع من يشاء، ويسحق من يشاء.!

لا يدري لماذا طافت صورتها بخياله الآن، هي الفقيرة، المعدمة، التي لجأت إليه يومًا طلبًا للحماية والعون، وجد نفسه يقارن بينها وبين ابنة صاحب الشركة، بالطبع لم يكن هناك مجالٌ ولا داعي للمقارنة، فقد كانت نتيجتها محسومة من البداية، ثم عقد مقارنةً أخرى بين حاله إن كان قد فَقَدَ عقله في تلك الليلة المشئومة، تزوجها، وحاله الآن، لا، ليس الآن، بل حاله بعد أن يتزوج تلك الجميلة الثرية، وما سيغدو فيه من نعيم ورخاء، وجاه وسلطان، يا لها من حمقاء، كيف أرادت لفقريهما أن يجتمعا فينجبا ألمًا وشقاء؟.. كيف أرادت له الهوان؟.. كيف أرادت له أن يتجرَّع الذل والمعاناة وضيق ذات اليد يومًا بعد يوم؟

صعقته تلك الصورة المُدمِّرة، انتفض عقله يصرخ، كلا هذه ليست حياتي، حياتي سأصنعها أنا، أما هي؛ فقد تكون تزوجتْ فقيرًا مثلها، وقد تكون أنجبت أيضًا، قد تكون تحيا الآن في حجرة ما، في درب ما، أو على الأكثر في غرفة فوق سطح بيت ما، كما اعتادت أن تعيش، فهذا

شيء ليس عليها بجديد، فقد اعتادت الحياة هناك، فوق الأسطح... اتجه بخيالاته إلى شيء آخر حتى يُبعد عن عقله تلك الصور المجنونة، عديمة القيمة، فأفكارٌ بلا هدفٍ لا يجني من ورائها ربحًا ولا مكسبًا؛ هي مضيعة للوقت، لا تستحق حتى أن تراودَ خياله أو تساورَ نفسه، لقد ذهبت هي، وهذا يكفي، وبدلاً من أن يستهلك طاقته في أفكار لا تُجدي ولا تجلب منفعة، يجب أن يفكر بعمق أكثر في وسيلة سريعة تجعله يتقرب إليها حتى يملك زمام أمرها، وتصبح له، قبل أن تعود من حيث أتت لاستكمال دراستها، يجب أن يتم هذا، وبأقصى سرعة، يجب أن يخطط لكل شيء، يجب ألا يترك شيئًا للظروف التي قد تنسيها إياه، ويصبح بالنسبة لها ذكرى باهتة، ورويدًا رويدًا يضيع معناها، تنسى مواقفها، ينعدم أثرها عليها أو إحساسها بها، ثم تختفي للأبد.

هدَّأ من روعه، طمأن نفسه وهمس وهو يبتسم في ثقة:

- لا تقلق يا عزيزي، لقد اقتربنا من نهاية السلم، ولن أرضى عن العرش بديلاً، أبدًا.!



- ٤ -

كانت إجازتها تقترب من نهايتها، الأيام تمرُّ سريعًا وكأنها تتحداه، وكان هو يستنزف طاقاته ويُعمل عقله بمنتهى السرعة، يتقرب إليها بكافة الوسائل، يحاول أن يبقى معها، أمامها، يملأ حياتها بقربه في كل دقيقة، بل في كل ثانية، حتى بدأ يشعر أنها لا تستطيع الاستغناء عنه، أصبح من ضروريات حياتها، فكان يصحبها طيلة النهار حتى تعود إلى منزله مساءً، ثم تحادثه هاتفيًا أكثر من مرة أثناء الليل، تسأله عن رأيه في كذا، أو رغبتها في كذا، وهكذا من الأحاديث التي كان قلبه يخبره أنها ما هي إلا وسيلة للإبقاء على خيط الحوار بينهما ممتدًا، ما هي إلا أعذار واهية كي تظلَّ معه على الهاتف حتى الصباح... لكنه كان يخشى شيئًا ما، فهي ليست كأبيها، لقد كانت تظنه ماكرًا، حاد الذكاء، يصل ذكاؤه أحيانًا إلى حد الخُبث، وكان لزامًا عليه أن يدلل لها على نقاء قلبه وصفاء نفسه وطيبته بأية طريقة، كان يخشى أن تؤثر تلك الأفكار عليها فتدرك حقيقة تقرُّبه إليها ورغبته في الارتباط بها، خاف أن تُدرك أن كل ذلك كان وفقًا لخطة مرسومة، مدروسة ومحكمة.!

وفي أحد الأيام كان يصحبها إلى النادي وخطر له أن يبدِّدَ بعضًا من شكوكها حوله، تذكر حادثة طريفة وقعت له في بداية عمله بالشركة، وقرر أن يرويها لها من باب التفكه وكدليل فعلي على طيبته وبراءته وسذاجته، كان في بداية عمله بالشركة قد اعتاد رؤية العملاء الذين يتوافدون عليه ليلاً بكافة أشكالهم وأجناسهم ومستوياتهم، وفي إحدى الليالي؛ وكان يشاركه النوبة الليلية أحد الزملاء القدامَى بالشركة؛ دخلت عليهما سيدة لا يمكن أن يقال عنها سوى أنها فاتنة، كانت جميلة بحق، ترتدي أفخر الثياب، يفوح عطرها، فيسبقها إليهم لينبئهم بقدومها، وكان لوجهها الملائكيِّ طابع خاص يتسم بالبراءة والهدوء وصفاء النفس، اقتربت منهما، ألجمته الدهشة، بهره حسنها، ذهبت بعقله عيناها الساحرتان، ألقت عليهما التحية ثم أخرجت من حقيبة يدها كمًا من العُملات مُختلفة الأجناس والألوان تريد استبدالها... نظر إلى رفيقه مشدوهًا، دارت بخلده العديد من التساؤلات، لماذا تريد استبدال كل هذا الكم؟.. بل ولماذا تحمل كل هذه الأنواع من العملات؟.. بدأ يخمن أنها لا بُد أن تكون صاحبة منشأة سياحية يؤمها الأجانب مختلفو الجنسيات، أو سيدة أعمال ذات نشاط واسع تتعامل مع شركات متعددة الجنسيات، أو أنها......، غرقَ في أفكاره وهو ينظر إليها ساهمًا، حتى أنه نسى يدها التي ظلت ممدودة إليه بالنقود، تدارك

زميله الموقف وقام بعمل اللازم، ثم شيعها بالتحية وهي تنصرف بعد أن تركت لهما بقشيشًا سخيًا نظير خدماتهما... ابتسم وهو يتذكر إعجابه بها، بفتنتها، بحُسنها الباهر وذلك الجلال والهيبة التي تصاحب خطواتها، وكيف تخيلها إحدى نساء المجتمع الراقي، ذكية، ثرية، وفاتنة، كيف حسد زوجها كثيرًا على امتلاكه لتحفة فنية مثلها، وضحك أكثر وهو يتذكر زميله الذي كان ينظر إليه مذهولاً، ثم غرق في قهقهة عالية انتهت بضحكات ساخرة، وهو يخبره أنه لم يزل غرًا صغيرًا، لم يفهم بعد أصول العمل، وقواعد اللعبة، فسيدة الأعمال تلك ما هي إلا.... غانية، فتاة ليل من اللاتي اعتدن التردّد على الفنادق وممارسة الهوى مقابل مبالغ معينة تحددها هي أو ما يعادلها بأي عملة أخرى، ثم تجمع حصيلتها وتأتي بها لاستبدالها... ومن يومها صار يعرفهن كلما قدِمْنَ إليه، كلما قدَّمْنَ له ذلك الكم المتنوع من العُملات، بل أصبح بعضهن صديقات له، يتودَّدن إليه، ويُجزلن له العطاء.!

:

لم تترك حكايته أثرًا عليها، لم يعرف إن كانت حيلته قد أتت نتائجها أم أنه قد مُنِيَ بالفشل... نظرت إليه نظرةً خاويةً بلا معنى، تخلو من أيِّ تعبير، ثم نهضت واستأذنته لمدة ساعة تجالس فيها صديقاتها وتتجول بالنادي، على أن ينتظرها حتى تعود، أو يفعل ما يحلو له، على أن يلتقيا في نفس المكان.

تركته وذهبت، لكنه قرَّر أن يغتنم الفرصة، لا بُد من طرق الحديد وهو ساخن، وهذه أنسب لحظاته، فقد تعلق به قلبُها ولم يعد باقيًا على رحيلها سوى أيام معدودة. استقرَّ على رأيه، استجمع شجاعته، اتخذ قراره، ذهب يبحث عنها، فلا بُد أن يتوِّج أحلامه اليوم بالتحقيق، لا بُد أن يكتب اليوم النهاية حتى يفسح المجال لبداية جديدة... اليوم.. بل الآن!.

وهناك وجدها... نظر إليها في صدمة وألم، فقد رآها في أقسى مشاهد الخيانة لطموحاته وأحلامه، كانت تقف مع شابٍ لا يكبرها كثيرًا وقد تشابكت أيديهما، كانت تهمس إليه بشيءٍ ما ثم تضحك بنعومة، برقة وسعادة، وكأنها تملك الدنيا بيديها، لم تكن تلك حبيبته [illegible]، فهو أبدًا لم يحبها، بل كانت خيانة لآماله العريضة التي [illegible] اعتبار ما سيكون، فهي له وحده، نعم له وحده... وفي لحظة [illegible] الأرض ووجد نفسه يندفع إليها يجذبها من ذراعها، يعنفها، يسألها في حنقٍ وغضبٍ عمَّن يكون ذلك الشاب، ولماذا تفعل معه، ولماذا تمسك بيدها، وما كان منها إلا أن نظرت إليه في دهشة لم تلبث أن تحولت إلى سخط واستنكار، ضمَّت ما بين حاجبيها في غضب وهي تسأله إن كان قد جُنَّ أو فقدَ صوابه حتى يحادثها بتلك الطريقة، تلك اللهجة، يمسك بذراعها ويتطرق إلى حياتها الخاصة ليحادثها فيما لا شأن له به.!

وفي رحلة العودة ـ وما كان أطولها من رحلة ـ دار بينهما أقصر حوار منذ أن عرفها، كان حوارًا بالغ القصر، لكنه كان كافيًا لتحطيم ما تبقى له من آمال، بادرها قائلاً :

- لا أدري ماذا أقول، أنا جدُّ آسف ونادم على ما حدث اليوم، لكن صدقيني أنا لم أتمالك نفسي وأنا أراك تقفين معه بذلك الشكل، في هذا الوضع الـ......، قاطعته صائحةً في غضب:

- أولاً: أنا لست مضطرة أن أبرِّرَ لك سلوكي وتصرفاتي الشخصية، فأنت لا شأن لك بي، ولا سلطان لك عليَّ وحياتي مِلكٌ لي وحدي، ولكن لمجرَّدِ العِلم، أنا وهذا الشاب ستُعلَنُ خطبتنا عمَّا قريب، ونحن فقط في انتظار إتمام دراستي بالخارج وعودتي للاستقرار هنا، معه.!

نظر إليها في ذهول وهو يسألها:

- وأنا؟

نظرتْ إليه في حيرة وسألته في دهشة حقيقية:

- أنت؟.. ماذا عنك أنت؟

همس إليها بصوت حاول أن يجعله حزينًا ضعيفًا كسيرًا قدر المستطاع: أين أنا من حياتك؟.. ألم تكوني تحبينني؟.. لقد كنتِ تحرصين على لقائي، تقضين معظم أوقاتك معي، حتى حين نفترق، تظلين معي على الهاتف حتى نلتقي صباحًا، فلماذا كان كل هذا؟.. لماذا؟

نظرتْ إليه في استنكار وعدم تصديق، فهمت ما كان يرمي إليه، أجابته في حزم وصرامة حتى تُنهي ذلك الحوار السخيف:

- لقد ظننتك مختلفًا، متحضرًا، لكن هذا لا يمنع أنك كنت لي شبه صديق، راعٍ وناصح أمين...

ثم أضافت في كبرياء:

- وقبل كل شيء... كنت لي خادمًا مطيعًا.!

هبطتْ كلماتُها عليه كسيلِ ماءٍ باردٍ، فأطفأت الجَذْوَة الوحيدة التي بقيت مشتعلة من أمنياته، لم تكن كلماتها قاسية على كبريائه، فقد تعلم أن الكبرياء عقبة في طريق النجاح، لذلك فقد تخلى عنه، دفنه حيًا منذ زمن، ولم تأخذه به شفقة ولا رحمة إنما كانت كلماتها قاسية على طموحه، نسفت أحلامه، بعثرت أمانيه، وعاد مرة أخرى ينظر إلى مرآة نفسه فوجده يقف أعلى السلم، يفصله عن العرش خطوة؛ فقفز ليتربع على عرش مملكته وعرين سلطانه، زلت قدمه، وجد نفسه يهوي في الفراغ، سقط بعيدًا، بعيدًا جدًا، وحين أفاق جل ببصره وجد نفسه هناك، أسفل الدَّرج، عند أول درجة، عند بداية السلم، ولكن وا أسفاه، لقد عجزت قدماه، لم يعد قادرًا على الصعود من جديد، أو حتى المحاولة.!

۞۞۞۞۞

- ٥ -

لأول مرة منذ التحاقه بالشركة يتغيب عن العمل، ويتقدم بطلب إجازة، وقد كان طوال فترة عمله حريصًا على أن يكون مثالاً للجد والتفاني، للانضباط والإخلاص، حتى يكتسب ثقة الجميع، ويحقق ما يريد.. لكنه اليوم أضحى يشعر بالخزي، يكلله العار، كان يشعر أن الجميع قد علموا بما كان وما بدر منه، ما خطط له، وما أخفق فيه، كان يشعر أن نظرات الجميع ستحمل له من السخرية والاحتقار ما لا يطيق، آثر الراحة بضعة أيام حتى أيقن أنها قد رحلت تمامًا عن البلاد فعادت حياته إلى سابق عهدها، وعاود العمل من جديد، ولكن، آلمته نظرات صاحب الشركة إليه وما أصاب علاقتهما من وهن وفتور، وما طرأ منّ تغيرات وحدود وفواصل وخطوط، وضعت حتى لا يمكنه تجاوزها أو تخطيها، حتى أنه أصبح من المحرم عليه أن يتحدث إليه مباشرة... كانت نظراته إليه سهامًا مسمومة، تنطلق لتغمره بجراح شتّى، وكلها تلقي سؤالاً واحدًا:

- "كيف جرؤت؟.. كيف؟"

انزوَى في مكانه، هدأت نيران طموحاته، خمدت، صارت رمادًا، بردت حتى أصبحت جليدًا، لكنه أبدًا لن يستسلم، ضاعت منه فرصة، انهزم مرة.. إلا أن العمر طويل، والفرص كثيرة، والنصر قادم لا محالة، لا بُد أن يبدأ من جديد، ولكن في طريق آخر، فتلك الجفوة لا بُد أن تزول يومًا ما، فللأيام أفعالها، وبالعمل والاجتهاد قد يستعيد مكانته عند صاحب الشركة، وشيئًا فشيئًا يستدر عطفه ويعود لسابق لعهده حين يخبره أنه لم يرد إلا خيرًا، وأن حبه له وعطفه عليه هو الذي شجعه على ذلك، أبدًا لن يملَّ المحاولة ولن يضعف عزيمته أي شيء، كان لا بُد أن يصل مهما كانت التضحيات، مهما قدم من تنازلاتٍ، ومهما كانت النتائج، وكفاه ما ضاع منه بلا طائل، كفى.!

زادت الجفوة بينه وبين رئيس الشركة؛ حتى أصبحت حديثًا يوميًا، ومادة للتندُّر بين الموظفين، فقدَ الأمل في إمكانية التأثير عليه، بدأ يشعر أنه مضطهد وأن مستقبله هنا غير مأمون، فطالما ظلَّ مع رئيس الشركة، أمام عينيه، لن ينسى أبدًا، ولن يغفر له ما كان، ولأول مرة تهتز ثقته بنفسه وتخذله قدراته، وفي نهاية الأمر اضطر إلى التقدم بطلب لنقله إلى فرع آخر للشركة، وبالفعل كان له ما أراد، وكأن رئيس الشركة كان ينتظرها منه، حتى لا يَكثُر الحديث إذا قام هو باتخاذ هذه الخطوة مباشرةً.

انتقل إلى مقر عمله الجديد، وبدأ شيئًا فشيئًا يعتاد حياته الجديدة مع الزملاء، حتى جاءته هي، دخلت عليه ليلاً وهو يكاد لا يعرفها، كانت أجمل مما كان يذكرها، فبعد أن ودَّعت فقرها ـ لا يدري كيف ـ ظهرت فتنتُها وصار الحُسن والجمال عنوانها، كانت ترفل في الثراء، هكذا يبدو عليها، ثيابها أنيقة فاخرة، عطرها ساحر، شَعرها مُصفف بعناية، كل جزء فيها ينطق بالرفاهية والغِنَى... هكذا إذن، فقد تركها لفقرها فتخلى الفقر عنها وكأن القدر يعانده، يراوغه ويتحداه، لكنه لن يسلم، أخبرته نفسه أن الله قد أرسلها كي يعوضه خسارته مع من سبقتها كي تنتشله هي من فقره وتحقق أحلامه، وراودته نفسُه أنها قد تكون لا تزال تحمل له حبًا قديمًا، قد يستطيع ببعض المهارة والعزف على أوتار قلبها أن ينفض عنه غبار الأيام، فتنسى ألم جرحه لها، ويوقظ في قلبها حلو الذكريات فيميل إليه، ويعيد كل ما كان وكل ما لم يكن، مع اختلاف الظروف بالطبع، فهو اليوم لها، مِلك يمينها، لديها، وهي لديها المال الجمال... اقتربت منه وقد ألجمتها المفاجأة، وعقدت لسانها الدهشة، أصابها الذهول وهي تراه جالسًا أمامها، بعد كل ما كان، تمالكت نفسها وألقت عليه التحية، وهي تضع يدها في حقيبتها، نظر إليها في وجدٍ وهيامٍ وهو يرد تحيتها مضيفًا:

- لازلتِ جميلة كما كنتِ دومًا، لكنك اليوم أكثر فتنة، ورغم كل ما حدث، ورغم طول البعد، عشتُ بك، معك، ولك، لم أنسك يومًا أو أخن ذكراك، كنتُ أتمنى لك الخير وأدعو لك في كل صلاة، كنتُ أعلمُ أنك قادمة لا محالة، كان قلبي يحدثني إنه
لا بُد لنا من لقاء، وأن الأيام ستجمعنا بعد طول فراق، بعد أن فرّقنا القدر، رغمًا عن كلينا!!

تمنّى في أعماق نفسه أن تهزها كلماته، وتحرك مشاعرها، حتى يستطيع أن ينقذ ما يمكن إنقاذه، ويخرج من تلك الجولة فائزًا منتصرًا.
نظرت إليه هنيهة ثم قالت:
- نعم، رغمًا عن كلينا، فأنا أدرك تمامًا أن القدر كان أقوى مِنا...
ثم أضافت ساخرةً:
- لم يكن بيدك ما تفعله من أجلي، فقد كنتَ مكتوف الأيدي.
همس إليها بصوتٍ حاول أن يُبدي فيه التأثر والرقة والحنان المصطنع:
- كل ما أتمناه الآن أن تكوني قد أدركتِ أني ما فعلت ذلك كله إلا من أجلكِ أنتِ، من أجل حبي لك، وخوفي عليك، فلأني أحببتك أكثر من نفسي، فضلتك على نفسي، فضّلت أن تجدي سعادتك مع مَن يستطيع منحك إياها، وها نحن ذا، وها أنا أراك اليوم فاتنة، متألقة، سعيدة، كما كنتُ أتمنى لك دومًا، وبرؤياك اليوم أيقنت أن تضحيتي لم

تذهب أدراج الرياح، وأن عذابي ومعاناتي بعيدًا عنك لم يضيعا هباءً، أيقنت أني لم أفعل إلا الصَّواب.

شردتْ لحظاتٍ، ثم تأملته قليلاً وهى تقول:
- نعم سعيدة، وما أشد سعادتي، ولكن إحقاقًا للحق، فأنا أدين لك بكل ما أنا فيه، فلولاك ما أصبحت كما تراني الآن، ولولاك ما كان كل هذا، لكنك لم تسألني أبدًا، ماذا فعلت بعد أن تركت منزلك وحيدة، حزينة، خائفة، والليل يُسدل ستائرَه ليملأ قلوبَ أعتَى الرجال خوفًا ورعبًا، وأنا بلا مُعين، وليس لديَّ مَن ألجأ إليه... لم تسألني أين بتُّ ليلتي، وليالي بعدها مرَّت عليَّ دون أن تعرف عني شيئًا، دون أن تسمع مني خبرًا... لم تسأل نفسك أبدًا أو تسألني، كيف استطعت أنا الضعيفة الفقيرة المُعدمة، أن أرفل في ثراءٍ، وأغوصَ في بحور سعادة... لم تسأل نفسك من الذي......

توقفتْ فجأة، أمسكتْ عن الكلام، وكأنها قد أدركت عدم جدوى الحديث، نظرت إليه نظرةً طويلة تملوها سخرية مريرة، ثم استطردت في سرعة:
- لكني ما أتيتُ اليوم كي نتعاتب أو نسترسل في الذكريات، فلم أكن أعلم أنك تعمل هنا، لكنه القدر، لقد أتيتك اليوم في عمل.

نظر إليها وقد تحركت آماله من جديد، أيقن من رعشة صوتها ورجفة يدها أنه قد أوشك على نيل مطلبه بعد أن حرَّك شجونها، وبرًا سلحته، وأسرع يقول:

- في خدمتك، فما وُجِدْتُ في هذه الحياة إلا لتحقيق رغباتك، تنفيذ مطالبك، السهر على راحتك، والاطمئنان على سعادتك، فما وجدت في هذه الحياة، إلا من أجلك أنت.

نظرت إليه وبابتسامة باهتة مدَّت إليه يدها قائلة:

- أريد استبدال هذه...

وأخرجت له كمًا كبيرًا جدًا من... العُملات.!

❁❁❁❁❁



شرفة
نصف
مغلقة

شرفة نصف مغلقة

كنا ثلاثة؛ نسكنُ شقةً صغيرةً في بناية متوسطة تقع ضمن صف من البنايات، يواجهه صفٌ آخر بطول الشارع... كنا نذهب إلى الجامعة صباحًا، ثم نعود لنستذكرَ دروسنا، وننجز ما لدينا من أعمال... حين يهبط المساء، نجلس معًا، نتسامر نتناقش، نتشاجر، نلهو قليلاً قبل أن نخلد إلى النوم، كي يبدأ يومنا الجديد.

ورغم أننا كنا نسكن في منطقة متوسطة الحال، إلا أن شوارعها كانت هادئةً، لا تعجُ بالضجيج كما هو الحال في معظم أنحاء المدينة، لم نكن نعلم شيئًا عن الجيران، سواء من كانوا يقطنون بنايتنا أو البنايات الأخرى، فقد كانت أولى شروط السكن ألا نختلطَ بأحدٍ من الجيران، لأن قاطني هذه المنطقة جميعهم "عائلات، وحقيقة؛ لم نكن نحن في حاجة إلى التعرف على أهل جيرتنا، فماذا يفيدنا الاختلاط بهم؟.. إنها مجرَّد شهور سنقضيها هنا ثم نرحل، يذهب كل منا إلى أهله وبيته، إلى الدفء الحقيقي، الحب الصادق الذي لا يحتاج إلى اختبار، ولا يحتمل التأرجُح بين صدقٍ وتكذيب.

كنا قد اقتربنا من نهاية العام الدراسي، صارت الامتحانات وشيكة، وكنتُ أنا في آخر أعوامي بالجامعة، شهور، وسأودع حياة الطلبة، أترك تلك الحياة، لأولد من جديد، بحياة جديدة، أغير بطاقتي، أصبح "موظفًا" بدلاً من "طالبٍ"، تختلف شخصيتي، يصبح لي عمل ومسؤوليات، زوجة وأطفال، هكذا تكون الحياة.
قررت أن أستذكر دروسي بكل طاقتي، وأن أمد ساعات استذكاري، رحت أذاكر من السادسة مساءً حتى الثانية صباحًا، حاول أصدقائي أن يسيروا معي على نفس المنوال، حيث اعتدنا أن نذاكر معًا، وبالفعل، طبقوا معي هذا النظام لفترة، لكنهم ما عادوا يحتملون، وصرت أنا أستذكر دروسي وحدي، ليلاً، بعد أن ينام الجميع.

وفي إحدى الليالي، كنتُ مع دروسي في الشُرفة حتى لا يطاردني النعاس داخل الشقة، كان الجميع قد خلدوا إلى النوم، والشارع يغط في صمتٍ ثقيل... وهناك رأيته؛ شابٌ ممشوقُ القوام، جسدٌ رياضيٌ متناسق، وسيمٌ بدرجة لافتة للنظر، أنيقٌ، ملابسه عصرية بلا تطرف، لا أدري لماذا شعرت أنه غريب عن المنطقة؛ رغم أنني لم أكن على دراية بساكنيها... صعد الشاب البناية المقابلة لنا، وعدت أنا إلى استذكار دروسي، فقد اقتربت نهاية العام، ولم يعد وقتٌ للتأمُل أو التخيُل والتفكير... وفجأة، وجدتُ بصري ينجذب إلى شيءٍ ما، شيء ما قد

اختلف في لوحة الشارع الهادئ والليل الصامت، تحوَّلتُ ببصري، تأملتُ ، لا شيء.. نفس الصَّمت، ونفس الظلمة، نظرت إلى البناية المواجهة، لا شيء، سوى، شُرفة نصف مفتوحة قد أُضيئت؛ هي الشُرفة المواجهة لنا، ووجدتني بلا إرادة ـ وكم لُمتُ نفسي على ذلك ـ أدقق النظر داخل الشُرفة، .إنه الفضول... كانت الشُرفة من ذلك النوع الذي يُفتح من أسفل لأعلى، وكانت مفتوحةً حتى منتصفها تقريبًا، وبينما أتأمل الشُرفة، لمحت جسدَ الشاب ـ أو بمعنى أدق نصفه الأسفل ـ يعبر أمامي، ويقف أمام الشُرفة، حين قابله جسد آخر، صغير، ضئيل الحجم، كما يبدو من الجزء الظاهر منه، وفي لمحة خاطفة، تعانق الجسدان، احتضن الشاب الجسد الضئيل في قوة، حتى كاد أن يختفي داخله، صارت الحركة أكثر عنفًا، أصابني التوتر والارتباك، لم أدر ماذا أفعل، ارتددت ببصري بحركة لا إرادية إلى الكتاب، وبحركة لا إرادية أيضًا، وجدتني أعاود النظر إلى الشُرفة، لكنهما كانا قد انسحبا بعيدًا.. بعيدًا، حيث لا أراهما.

حاولت أن أتناسى هذا الموضوع، ما لي أنا والناس؟.. كلٌّ حرٌّ فيما يفعله، وما أدراني من يكون هذا الشاب بالنسبة لها؟.. ثم من أعطاني الحق كي أتلصص على منازل الآخرين وأطَّلِع على أسرارهم؟.. كلا،

لقد أخطأت حين طاوعت نفسي وتابعت ما دار، لذلك، يجب على الأقل أن أصلح خطئي بأن أتناسى ما رأيت... لا بُد.

ولكن، تبًا لطبيعة النفس، رحت رغمًا عني أستذكر دروسي كل ليلة في الشُرفة، أظل أنقِّل بصري بين كتابي، والطريق، والبناية المقابلة... أنتظر ظهور الشاب مرة أخرى، وخاب ظني، لم يأت الشاب، أصابني التوتر والإحباط، وكأنني كنتُ أنتظر موعدًا هامًا بالنسبة لي أنا، تابعت الشُرفة، لكنها ظلت دومًا على حالها... نصف مفتوحة.

وفي نفس الموعد، في اليوم نفسه من الأسبوع التالي، ظهر الشاب... وهنا بدأت أفهم، إنه يأتيها مرة واحدة كل أسبوع، نفس اليوم، ونفس الموعد، وكما حدث في المرة السابقة، صعد الشاب إلى البناية فأُضيء نور الشُرفة النصف مفتوحة؛ احتضنها، وأظنه كان يقبلها، لكني لم أرتد ببصري هذه المرة، بل قرَّرت أن أتابع ما سيكون، لكن حركة جسدها كانت عنيفة، أظنها كانت تحاول التملص منه، تحاول الفرار، لكنه كان يطبق عليها بذراعين قويين، قوة الشباب، والرغبة، ثم... ابتعدا عن الشُرفة.

تابعت لقاءاتهما الأسبوعية، رحت أتابع كل لقاء بشغف وإثارة متوقعًا في كل مرة أن أرى المزيد، لكن، كان الأمر دائمًا ينتهي عند نفس النقطة، حيث ينتقلا من أمام الشُرفة إلى مكان آخر، أظنه......!

وفي ليلة ما، صعد صديقي إلى شقة جارتي، كما أصبحت أسميها، وتكرَّر المشهد الذي طالما اعتدته، وظللت أتابع ما يدور، حتى أخذها وانسحب إلى الداخل، مثلما يحدث في كل لقاءاتهما، وعدت أنا إلى دروسي... وبعد فترة، عادا للظهور أمام الشُرفة مرة أخرى، كان يقف أمامها، تتحدث إليه، كما يبدو من حركات يديها، كانت ترتعش، يهتز جسدها... هل كانت تبكي؟.. وكان هو يمسك كتفيها، كما يبدو من ارتفاع يديه ووضعهما المستقر، كان يُهدئها؛ كما أعتقد؛ اقتربا، التصق جسداهما، يبدو أنها قد ارتاحت على صدره، ازداد اهتزازُ جسدها، وعنفُ حركتها، كانت تحتضنه بقوة، تتشبث به... شعرتُ بحزنٍ غامضٍ رهيبٍ يملؤني، وفجأة... انفلت من بين يديها، واختفى، وهناك رأيته، يهرول إلى الشارع، ابتلعه الظلام، واختفى في صمت الطريق... أما هي، فقد أسندت ظهرها إلى الشُرفة، وظل جسدها يهتزُّ في عنفٍ وألم، ثم انسحبتْ إلى الداخل، وأطفأت الأنوار، أظنها كانت آخر لياليهما، أظنه... كان يودعها.

في الصباح، أيقظني صوت أحد أصدقائي، سمعت ضجيجًا لم أعتده في شارعنا الهادئ، فتحت عيني بصعوبة، فوجئت به يصرخ بي:

- استيقظ، هيا انهض.

- ماذا حدث؟

- وقع حادث أليم، انتحر شاب كان يقطن بالشقة المقابلة في البناية المواجهة لنا، ألقى بنفسه من الشُرفة.

وهنا أدركت ما حدث، لقد اكتشف الشاب ما كان يدور ليلاً بين أمه أو أخته، وهذا الزائر الغامض... لا بُد أنه قد استيقظ ليلاً على صوت بكائها، وربما سمع حوارها معه... تراها كيف تشعر الآن، وكيف ستحيا وذكراه تطاردها، كيف؟

حاولت أن أستفسر من صديقي، أتلمس الأخبار دون أن أفضح سر ما رأيت، أو أبوح بما أعلم، علقتُ بعفوية مقصودة:

- لا بُد أن أهله سيصيبهم الجنون.!

رد صديقي في إشفاق حزين:

- لا أحد يعلم شيئًا عن أهله، لقد كان يحيا وحده في هذه الشقة.!

أغلقت عيني، وألقيت بجسدي على السرير.!

شرفة
نصف
مغلقة

دقــات

كان تنفسها بطيئًا، ثقيلاً، يكاد لا يحس، كانت تعاني سكرات الموت، تنتظر النهاية، تنازع من أجل البقاء، أو الرحيل، فكل ما يعنيها أن ينتهي الأمر، فما عادت تحتمل الألم، وما باتت تطيق الانتظار، فدقات قلبها تخفت شيئًا فشيئًا، يتراجع وقعُها، حتى أوشكت أن تتوارَى وتصبح ذكرى، وقريبًا يطويها النسيان.

تعاقبت الدقات، راحت تنظر إلى ساعتها، لم يعتد أن يتأخر عليها، تُرى ماذا حدث؟.. كانت ساعتها تدق فيرجع صدى الدقات في قلبها، يطرق بابَه، يذكِّرها بحبه لها، يسألها أن تنتحل له الأعذار، أن تسمع منه، ومهما يكن، تصفح عنه... وحين همَّت بالانصراف، وجدته أمامها، مبتسمًا معتذرًا، نسيت كل الغضب الذي ثار في نفسها، ألقت وراءها بوسوسات الشيطان الذي أسرَّ إليها بأنها يجب أن تجافيه، تعانده؛ تثور عليه، ومن كأس الهجر تسقيه، جلست إليه، تلاقت نظراتهما، تلامست أيديهما، تحادثا، تعانقا، تعالت الدقات، كانت في غمرة فرحها، قمة سعادتها، ترتدي ثوب العرس، وهو بجوارها، تتأبط ذراعه، فتقبض

على الدنيا بيديها، تلألأت الأنوار، لوَّنت كل حياتها بلونٍ جديد، لون لم يوجد من قبل، ولن يوجد له مثيل، وحين مال عليها، استنشقت فيه عطر الحياة، فملأت منه صدرها، تشعب في خلاياها، فأشرق وجهُها، ووصلت في العشق إلى منتهاه، وحين نظر هو إلى ساعته، ذابت خجلاً، توارت خلف خمار جمالها، تدثرت بفتنتها ، تركت نفسها بين يديه.

تسارعت الدقات، كانت تصرخ، يُضنيها الألم، تُمزق جسدها الآهات، ورغم العذاب، تمنت لو عانت أكثر وأكثر، حتى يخرج وليدُها إلى الحياة، فمنذ أن حملته داخلها، وهو يعبث ويلهو، يثور ويغضب، يتعجل الظهور، يريد الانطلاق، يتوق إلى النور، يتمنَّى أن يراهما، وكانت هي أكثر منه لهفة، تريد أن تضمه إلى صدرها، أن تحتضنه، أن تعانقهما عناقًا أبديًا، فتكتمل أركان جنتها، فتغلق بابها، وتحيا أبدًا في سعادتها... وحين دوت صرخاتُها، امتزجت بصوت بكائهِ الضعيف، ومن آهات الألم انطلقت صيحاتُ السعادة، رفعته إليها، قبَّلت شفتيه الصغيرتين، مال عليها، ربت على رأسها بحنان، حمد الله على سلامتها، نظرت إليه، كانت تشعر في نفسها وهنًا، راحت دقاتها تخفت، كان إيقاع الحياة يأتيها من بعيد، تتلمسه كما تتلمس صورة لذكرى مرت عليها سنون، وكان هو أمامها، لكنها لا تراه بعينيها، بل بقلبها، فصورتُهُ أمامها تهتزُّ، يغشاها الضباب، كانت كل حواسها قد اعتراها الضعف، ولم تعد قادرة

على التمييز، شعرت بيديه تعتصر يديها، ودموعه الحارة تنساب على شفتيه اللتين تقبلان أناملها، حاولت أن تستجمع قواها حتى ترد له ضمة يده بضمة يد، أرادت أن تطمئنه، أن تواسيه، لكنها لم تستطعْ، ركزت كل جهودها أن تراه، ولو لمرة أخيرة، فتحت عينيها بصعوبة، انطبعت صورتُهُ فيها، رأته كما لم تره من قبل، والصغير بجوارها، الآن اكتملت سعادتها، وحان الوقت، كي تغلق أبواب جنتها.!



شرفة
نصف
مغلقة

القتل الرحيم

تقلصت عضلاتُ وجههِ، توتَّرت ملامحُهُ، ارتجفت يداه، ارتعشت أنامله وهو يرفعها ببطء... انتظر دقيقة، ثم أخرى، ثم طرق الباب، وقف ينتظر، مرَّت عليه الثواني بطيئة ثقيلة ، مرت كأنها أعوام، هي ليست أول مرة، لكنه في كل مرة يشعر بالتعب، يصيبه الإرهاق، ينال منه الإعياء، تسوء حالته، يمكث بالمنزل، يقبع في مكانه أيامًا، فلم يكن يخطر بباله قط أن يصير حاله يومًا إلى ما صار إليه الآن، كان شاعرًا، حالمًا، مرهف الإحساس، يدور في فلك الكلمة والمعنى، لا يدري متى داهمته الأحزان، راح يتألم لأوجاع الناس، أقرباء كانوا، أم عنه بعيدون، كان يشعر أنه مسؤول عن كل ما حلَّ بالبشر من تعاسة وشقاء، كل ما نزل بهم من عذاب وألم، من هَمٍّ وحِرمان... وكان ما يزيد من معاناته، عجزه عن تقديم العون لهم، عن مدِّ يد المساعدة لانتشالهم مما هُم فيه، عجزه عن تلبية احتياجاتهم، أو إدخال السعادة إلى نفوسهم. لكنه لم يستسلم، لم يقف مكتوف الأيدي، لم يكتَفِ بالنظر إليهم، مواساتهم، التحسُّر على مصائرهم، اتخذ قرارًا ثوريًا، قرارًا لم يسبقه غيره في التفكير فيه، ولم يجرؤ أحدٌ قبله أن ينفذ بعضًا مما قام هو به.!

في بداية الأمر قرر أن يعمل في إحدى الجمعيات التي تساهم في مساعدة المحتاجين، من خلال قنوات شرعية، وبطرق قانونية... ويا ليته ما عمل بها، فما رآه زاد من شقائه أضاف تعاسةً إلى تعاستِهِ؛ فتحركت عذاباتُ نفسه، رأى من الفقر والعوز، من الضعف والوهن، من البؤس والحاجة، من النفوس المحرومة، والرؤوس المُنكسة، ما كفله أن يعيش العمر مهمومًا، محرومًا، يائسًا... وزاد من شقائه أنه ما لمس في قلب أحدٍ ذرة رحمة، ما لمس فيهم حنانًا أو شفقة، فقد كان الجميع يعملون كعملهم في عملٍ آخر، يؤدون عملاً مقابل مال، لم يشعروا أبدًا أن عملهم هناك يجب أن يكون حُبًا وحنانًا؛ أكثر من كونه وعدًا بمال أو إحسان، كانت سمتهم - قبل كل شيء- إنسانية، بل على النقيض، كانوا يشعرون بسلطانهم، بقوتهم، بنفوذهم وسلطتهم على تلك النفوس الضعيفة، تلك الكيانات التي لا تستطيع الرفض، التي لا تملك إلا الطاعة والاستسلام.!

كانت تقتله نظرات الخضوع في أعينهم، تثور نفسه لمرأى الذل مجسدًا في ملامحهم، ينفطر قلبه لسماع كلمات الأسف تنطلق من أفواههم كالسيل، يعتذرون عن ذنبٍ لم يرتكبوه، ولكن ارتكبتْهُ في حقهم الحياة، كان يرَى الأسى في كل الوجوه، الخوف في كل العيون، الهوان والانكسار في كل اللفتات والسكنات.. بدا في أول الأمر حانقًا عليهم،

كيف يرضى الإنسان لنفسه ـ مهما كان وضعه، مهما كانت أسبابه، مهما كانت ظروفه، مهما مرَّ به من مصاعب وعثرات ـ مثل تلك المعاملة، كيف لا يشينُهُ مثل ذلك السلوك، كيف يقبل أن يصير عبدًا لكلمة، أن يرهن حياته بلفظة، يقامر بحياته من أجل ورقة مال، كيف يتجاهل نظرات التقزز والاحتقار في العيون، لماذا لا يرُدُّ كلمةً بكلمة؟.. نظرةً بنظرة؟.. أين كبرياؤكم؟.. أين عزة أنفسكم؟.. أين؟

مرَّت عليه لحظات أخرى، حاول أن يستعيد فيها رباطة جأشه وهدوء نفسه، قبل أن ينفتح الباب أمامه، أطلَّ عليه وجهٌ لطفلة سكن حزن العالم قسماتها، كل ملامحها، بدا عليه الفقر واضحًا كاملاً، في أبهى صورِه، وأدق معانيه، سألها عن أبيها، إن كان موجودًا أم أنه ما زال في العمل، كان يتمنى في قرارة نفسه أن تجيبه بالنفي؛ فيعود من حيث أتى، وتنتهي زيارته سريعًا، أخبرته الصغيرة ببراءة أن أبيها موجود بالمنزل لأنه لا يعمل، وفجأة اندفعت الصغيرة للأمام، وانتفض جسدُها إثر صفعة أتتها من الخلف كالبرق، فاقتلعتها من مكانها كنبتة صغيرة داهمها إعصار، ثم جذبتها يدٌ غليظةٌ، خشنةٌ؛ صدِئة، وألقت بها جانبًا، خلف الباب النصف مفتوح، حيث لا يراها هو، وتوعَّدها صوت أجش بالويل، ثم أتبع تهديده بسيل من السُباب يعاف ذكره اللسان، برز له وجهٌ أقل ما يقال عنه أنه وجهٌ تجمعت به كل ملامح الغِلظة والقسوة،

جمود القلب والتوحش، وبنبرة عدائية، هجومية، فظة، سأله عمن يكون، وماذا يريد... ارتدَّ للخلف وهو يجيبه بصوتٍ حاول أن يجعله هادئًا، مستقرًا، ودودًا قدر المستطاع، رغم ما كان يعتمل في نفسه، رغم البركان الذي ثار فتناثرت حممه لتذيب مشاعره، وتحرق طيات قلبه، تندفع في شرايينه، تسبح مع تيار دماه، تصل إلى مراكز تحكمه، تحاول أن تسيطر عليه، تحرك القوة الكامنة في أعماقه، حتى تتخلص من قيود نفسه، تحثه أن يطيح به، يدق عنقه، يختطف الصغيرة المعذبة يفرّ بها بعيدًا عما ينتظرها من شقاءٍ، بعيدًا عن كل هذا العذاب، كل هذا الامتهان، ليعيد إليها براءتها، لتسترد ما سُلب منها، كي تحيا أيامها كما يجب أن تحياها، سعيدة، مرحة، ويكفيها ما سيعتريها من آلام وهموم، ما ستحمله من أعباءٍ ومسؤوليات، من أفكار وعذابات، كفاها ما ستلقاه من مشقة حين تكبُر... أخبره أنه مندوب لجمعية خيرية أتى كي يرى بنفسه واقع حياتهم، كي يعاين فقرهم وحاجتهم، حتى يقدم تقريرًا دقيقًا عن مدى حاجتهم للمساعدة، ونوعية المساعدة التي يمكن تقديمها إليهم.!

فجأة تغير حال الرجل، انقلبت أوضاعه رأسًا على عقب، أصبحت خشونته تهذيبًا، صارت قسوته رقةً، تحولت فظاظتهُ إلى تضرع وخشوع،

وكست صوتَه نبراتُ ذلٍ وانكسار... أفسح له الطريق إلى داخل المنزل - وإن لم يكن من الصواب أن نطلق عليه منزلاً - بينما راح يشرح له ما يعانيه من مرض واحتياج، وما يقاسيه أطفاله التعساء من حرمان، وهو لا يستطيع حتى أن يدبِّر قوت يومهم، وقد أوشكت حياتهم على الانهيار، لولا عمل زوجته كخادمة في المنازل لكانوا ماتوا جوعًا، ولولا خوفه من الله وحرصه على مستقبل أبنائه لكان قد فكَّر في الانتحار، ونفَّذ ما فكر فيه... أي مستقبلٍ ذلك الذي يحرص عليه؟ إنه يعلم جيدًا ذلك النوع من البشر، فأحط أنواع البشر عادة هم أكثر الناس حرصًا على حياتهم، فهم لا يريدون الموت، لا يريدون أن يفقدوا حياتهم رغم شقائهم فيها، لأنهم دائمًا يأملون أن يصيبوا فيها بعض السعادة، أو يدركوا فيها بعض الملذات، ويشبعوا بعض الشهوات، أما الموت، فلن يؤدي إلا لدنيا أخرى، لا مكان له فيها، لأنه بعيدٌ تمام البُعد عن الله، لا يدري له طريقًا، ولا يحاول أن يسلك له دربًا... تمنَّى في قرارةِ نفسهِ لو كان هذا المأفون قد فكر حقيقةً في الانتحار، ونفَّذه بالفعل، ليت ذلك يحدث، فموتُهُ قد يُريح تلك الأرواح المسكينة، قد يمنحهم حياةً جديدة، ميلادًا آخر، بعثًا بعد موتٍ طويل، فاليتامى لهم وضعٌ آخر، سيكون لهم موارد أكثر، حياة أوسع، ستشملهم الرعاية، يلفهم الحب، أما الآن فمن سيعطف عليهم وهم يرون ذلك الثور الهائج، موفور الصحة والعافية،

الذي يستطيع العمل بقوة عشر رجال؛ حيًا يُرزق، سليمًا مُعافى، كيف يعطفون عليهم وهم يعلمون أنه أب لهم ومسؤول عنهم؟.. فلماذا لا يعمل هو؟.. لماذا لا يجاهد هو حتى يُنفق عليهم؟.. وهل يُصبح الإنفاق عليهم مُعضلة لا لشيء إلا لأنه لا يريد العمل؟.. لماذا لم يفكر فيهم قبل أن ينقاد وراء شهواته؟ يأكل، يشرب، يدخن، ينتظر المساء بصبرٍ نافدٍ، يداعب امرأته، يضاجعها، ينام بعد أن تخورَ قواه، ثم يأتي بكمٍّ لا بأس به من الأشقياء، يلقي بهم في أحضان حياة تزيدهم شقاءً، ويتركهم فيها حتى يُلاقوا مصيرًا محتومًا، يعيشون على صدقة أو تسول، ينهرهم الناس ويعذبهم هو.!

شرع يتأمَّل اللا شيء داخل المنزل، وبمجرَّد دخوله، أدرك أنه، بتعبير أدق حُجرة، فالمنزل عبارة عن حُجرة واحدة تم عزل جزءٍ منها بستارة ـ كانت في أحسن أحوالها ملاءةً أو جلبابًا أو شيئًا من هذا القبيل ـ مهترئة، ذهبت القذارة بكل ملامحها، وصار الطين هو اللون السائد فيها، مثل كل شيء في الحُجرة، كان من الواضح والمنطقي أن ذلك الجزء المعزول يُستخدم كدورة مياه، تعجَّب وهو يتأمَّل ذلك الجزء، فمن العجيب حقًا أن ذلك الكائن ما زال يحتفظ ببعض آدميته، ببعض أصول اللياقة، وقواعد الأخلاق، حاول أن يحدس كُنه تلك الأشياء المبعثرة في أرجاء الحجرة والتي يبدو أنها تشير ـ بطريقةٍ ما ـ إلى كونها أشباه أثاث، إلا

أنه فشل في اكتشاف ماهيتها... حقًا، إن الوضع متردي هنا، صار حالهم عدمًا، لم يرَ مثله سوءًا أو تدهورًا، لكن الفقر ليس هو السبب، بل هو، نعم، هو وحده المسؤول عن كل هذا، هو من أوصلهم إلى ذلك الحال، إلى تلك الدرجة من الانحطاط، هو من ألقى بهم في بئر الحرمان، هو من حصد أرواحهم، سرق أحلامهم، اختطف أمانيهم، هو من اغتالت يداه آمالهم في مهدها، أورثهم عارًا، أحنى ظهورهم بأحمالٍ تنوء بحملها الجبال، أثقلهم بهموم، فانثنت أعوادهم بما لا ينفع معه أي تقويم، مهما استطالت هاماتهم، مهما استقامت ظهورهم، ستظل تلك الانحناءة حية، باقية في نفوسهم، في خيالهم، وفي ضمائرهم، سيظلون العمر ينظرون تحت أقدامهم، لن تفارق نظراتهم الأرض، لن تعلو أبدًا لتصلَ إلى السماء، وكأن فوق رؤوسهم مطارق وأثقال، وكلما همُّوا برفع رؤوسهم؛ اصطدمت بالأحمال، بالأثقال، فيسرعوا بالانحناء، وحين يتكرَّر المشهد، يدركون أن تلك الأحمال باقية فوق رؤوسهم أبدَ الدَّهر، إلى ما لا نهاية، فيؤثرون الاستسلام، يتكيَّفون مع الطاعة، يتعايشون مع الانحناء، ويتظاهرون أنهم قد قبلوه طوعًا، بإرادتهم الحرة، وبمُطلق اختيارهم، بدلاً من أن يقاوموا... وتأتي النهاية، ويكتشف الجميع أنهم خاسرون، حاولوا وجاهدوا، وهزموا، فضلوا التظاهر

بالقناعة والرضا، بدلاً من النقمة، وإعلان الثورة، والتلويح بأيدٍ تُكبلها الأغلال.

راعَهُ كل ذلك الإهدار لكرامة البشر، كل هذا الصدأ يعلو النفوس، ممزوجًا بمرارة اليأس ولوعة النسيان، كل تلك المعاناة مجتمعة في مكانٍ واحد، يوزعها عليهم كائن واحد، سرق في غفلةٍ من الناس لفظةَ إنسان، وأطلقها على نفسه، حتى يخفي حقيقته، حتى يطمس ملامحه، حتى يواري أصله التراب، يدفن معه كل جرائمه، ويبدأ من جديد، بين أرواح ساقها إليه القدر، فجاء الدنيا ليشقيها، لينتقمَ منها، ليصبَّ عليها جامَّ غضبه، يحرقها؛ يكويها بنار وعذاب، يُلهب ظهورها بسياط، يطلق اللمع في أعينها أنهارًا، يفيض على أرضٍ، تملأ منه آبار، يغترف منها هو، يروي ظمأه، ثم يقتات على فتات أحلامهم، وينام الليل هانئًا، راضيًا قرير العين، مستريح البال.!

دار بعينيه في أرجاء الحجرة مرة أخرى، رأى كل ما يمكن أن يراه، ملامح الأشياء، لم تبق في ذهنه صورة أو ذكرى لأي شيء مرت عليه عينه، فقط تمركزت في خلايا ذاكرته التي أنَّتْ من وطأة ما تحمله من صور وذكريات لأحزان؛ لأشجان، لآلام وعذابات، فقط تمركزت صورة لطفلة مذعورة، الخوف يعلو ملامحها، مستلقية متكورة، كقطٍّ بلَّلَهُ المطر في شتاءٍ قارص البرودة، تدور برأسها الأفكار، تكاد تموت رعبًا مما هو قادم،

تنتظر العقاب، تحاول أن تتحلى بالصبر، تتجلد حتى يتحمل جسدها الصغير الواهن، ما يعلمه الله من صنوف الألم والعذاب والوحشية، حاولت أن تطمئن نفسها بأن سيكتفي بتلك الصفعة التي زلزلت كيانها، التي شقتها، فهو أبوها، لا بُد وأنه سيكون بها رءوفًا رحيمًا، هي لن تهون عليه، شعرت بأنه في تلك المرة لن يفعل بها ما يفعله في كل مرة تخطِئُ فيها، حسبما يرى هو، ضاقت عيناها وارتجفت وهى تتذكر أنواع العقاب التي ذاقتها من قبل، ووسائله، لكنه اليوم لن يقسو عليها، لن يضربها حتى تصبح منهوكة القوى غير قادرة على الحركة، لن يجذبها من شعرها حتى ينتزع خصلاته بين يديه، لن يقذفها فترتطم رأسها بالحائط وتسيل دماؤها، حارةً، لاذعةً، أو يقيد يديها وقدميها ويلقي بها تحت السرير ليومين كاملين كما فعل من قبل، أبدًا، لن يفعل أيًا من ذلك اليوم، إكرامًا لهذا السيد، حتى يبدو أمامه ضعيفًا، حانيًا، مغلوبًا على أمره، حتى يحصل منه على المال، فيأكل ويشرب، ويحتسي أردأ أنواع الخمر، وتعود حياتهم إلى سيرتها الأول بعد نفاد النقود... على الأقل، سيمنحها القَدَرُ إجازة، ولو لمدة يومين تستريح فيهما من سيل العذاب المتصل.!

تساءل في نفسه، في حيرة وألم، كيف تنعدم من قلب المرء الرحمة؟.. كيف يتوه عن فؤاده الحنان؟.. كيف تضل مشاعره سبيلها، فيضرب مخلوقًا ضعيفًا لا يستطيع المقاومة، لا يملك من حطام الدنيا شيئًا، سواه؟... وما بالك إذا كان هذا المخلوق جزءًا منك، فَلذة كبدك؟.. ما بالك إذا كان هذا المخلوق ابنتك؟.. وإذا كان كل ذنبه وأكبر خطاياه أنك أنت من أتيت به إلى هذا العالم، أنت من وضعتَهُ في هذه الدنيا دون أن تحسب له حسابًا، أو تصنع له مكانًا؟.. مخلوق لم يختر أقداره، مخلوق؛ رغم الفقر، رغم البؤس، رغم شقاء الحيلة، وشظف العيش؛ كان يرضيه منك لمسة حنان، ابتسامة مودة، أو ضمَّة شوق؛ ضمَّة تعِدُهُ بها أنك ستغير كل ما كان، ستعوِّضه كل ما فات، ستبدِّل خوفه أمنًا، وتبعد عن عينيه الصغيرتين، البريئتين كل شبح لألم أو حُزن، حتى إن كانت وعودك مجرَّد كلمات، حتى وإن مرَّ العمر دون أن تحقق له وعدًا، دون أن تحفظ له عهدًا، أو تُبقي على كلمة، إلا أنه سيظل يحمل لك في القلب ذكرى، سيقنع نفسه دومًا أنك قد عشت حيةً بأكملها تجاهد تجارب، تجوب الدنيا، تقطع الأميال من أجله هو، فيظل العمر يذكرك خيرًا، يذكرك أبدًا، يذكرك أبًا، عاش وضحَّى حتى لا يصيبه سوء...

أما الآن، تُرى ماذا سيحكي عنه الأبناء؟.. تُرى أي ذكرى سيحملونها له في قلوب يملؤها العذاب؟.. تُرى أي بُغضٍ سيتراكم في النفوس؟.. أي

كُرهٍ سيترسَّب في الأعماق؟.. وأية مشاعر تلك التي ينتظرها إنسان من قلبٍ وطأهُ بقدميه، غير مبالٍ بأنينٍ أو صراخ، بعويلٍ أو بكاء، بصمتٍ يدل على الضعف أو الاستسلام ؟

خرج مرَّة أخرى إلى الشارع، إلى الحياة، راح يعُبُّ الهواء، يملأ رئتيه في شراهة وطمع، بعد أن زاد ضغط آلامهم على صدره، فصار تنفسُهُ بطيئًا، ثقيلاً، حتى بات يشعر في كل دقيقة بالاختناق، ظلت صورتها تملأُ عليه خياله، تطارده، تستغيث به، تطلب منه الرحمة، تمدُّ إليه يدًا صغيرة أن أنقذني، تتوسل إليه، لا تتركني، خُذ بيدي...

عصفت بكيانه الأفكار، ساءت حالته، أدرك أن ذلك الكيان، ذلك الشيء ـ سارق لفظة إنسان ـ قد دمَّرَهُ هو أيضًا، أدرك أن دائرة الدمار قد صارت كاملة، شاملة، مكتسحة، جرفته إليها، غرق في دواماتها، لن ينقذه أحدٌ، ولن ينقذهم أحدٌ... ظل يبحث عن طريقةٍ، عن وسيلةٍ، عن معادلةٍ صحيحة، يعيد بها الحياة إليهم، ويوقف زحف تيار الدمار، هداه تفكيره إلى أن أنسب الوسائل وأكثرها فاعلية للقضاء على تلك الدوامات، هي قطع التيار من مصدره، من منبعه، تشتيت مركزها... ومن هنا كان القرار، سيصبح هو مُخلِّصهم، نعم؛ سيخلصهم هو من أعمق مخاوفهم، من أقسى تجاربهم، سيخلق لهم حياةً من اللا حياة التي يعيشونها... شعر أن الله قد اصطفاه، أطلعه على آلامهم، غمره

بأحزانهم، حتى يسلك أقصر الطرق إليهم، يضع يده بالضبط على علتهم، فلا يضيع الوقت في تجارب، بل يكون مستعدًا لكل داءٍ بدواء، يصل إليهم في أنسب الأوقات، فيشفي جراحهم... ستكون هذه هي الجنة التي سيصنعها لهم بيديه، على الأرض.!

لم يحزن كثيرون ـ إن كان هناك بالفعل من حزنَ ـ لفقده، حين عثروا عليه قتيلاً صبيحة أحد الأيام، كان مُلقًى في أرضٍ خربة، وقد تهشمت رأسه تمامًا حتى ضاعت ملامحه، وبالكاد تم التعرف عليه من ملابسه، بل ـ ولا شماتة في الموت ـ شعر كثيرون بالارتياح لأنهم قد تخلصوا من شيطان يمشي على الأرض، وسعد كثيرون لأن أسرته التي عاشت العمر مضطهدة، مكبوتة، قد استراحت بعد طول عناء، فانهالت عليهم المساعدات، كما قرَّر لهم إعانة شهرية ثابتة، فهم يتامى، وكأن الدنيا كانت غاضبة عليه وحده، وحين رحل، ضحكت لهم، عوضتهم عمًّا لاقوه منها من سوء المعاملة، فنظرت إليهم بعد أن كانت تدير لهم ـ في حياته ـ ظهرها.!

أما هو، فقد راح يجوب المدن، يتنقل بين القرى، يتأمَّل ويشاهد، يحصي ويقارن، يقرر، ويتراجع، يدرس الحالات، يرى أيهم في حاجة إلى مساعدته العاجلة، تدخله المباشر، أي تلك الحالات لا تستطيع انتظارًا، ولا تحتمل تأخيرًا...

لم يربط أحدٌ أبدًا بينه وبين تلك الحوادث الغامضة، التي صارت عديدة، حوادث قتل راح ضحيتها مُتجبِّرون، متوحشون، فارِضُو سطوة، مستغلون، ومجرمون... وعلى النقيض، كان هو رمزًا للخير، مُحبًا للفقراء راعيًا للمحتاجين، وكثيرًا ما سمع الناس زفرة ارتياح بعد كل حادثة، زفرة أطلقها من عاش العمر شقيًّا، من رأى وتألم، من شاهد وتعذَّب، من كتم وتحمَّل... حتى جاء يوم، يعلن فيه الثورة، من خلال زفرة، زفرة ارتياح.!

استدراك

- أين أنا؟.. ما هذه الصرخات؟.. ما كل هذا الألم؛ كل هذا العذاب؟.. ما هذه الآهات المفزعة؟... إحساسي لا يطاق، هل أنا في الجحيم؟

- لقد قتلتَ نفسًا بغير حق.!

- إذن فهذا هو الجحيم، من المؤكد أنه الجحيم، لكني لم أفعل شيئًا كي أستحق كل ما أنا فيه الآن.!

- لقد قتلتَ نفسًا بغير حق.!

- بل كان لي كل الحق، كانوا قسلةً، شدادًا، غلاظ القلب، دمَّروا حيواتٍ، حطموا قلوبًا، بعثروا أمانيَ، وخلقوا على الأرض جحيمًا لم يكن يصلح لسواهم، أردت تحقيق العدل، كان لا بُد لكفة الحق أن ترجح، كان لا بُد لتجبرهم من نهاية، ولممالك طغيانهم من زوال.!

- لقد قتلتَ نفسًا بغير حق.!

- لقد قتلوني في كل دموع الأبرياء، في كل آلام الحيارَى، في كل أحزان الضعفاء، في كل آهات الثكالَى، وفي دعوة كل مظلوم لم يستطع أن يرُدَّ عن نفسه بطشًا، أو يدفع عنه عدوانًا.

- لقد قتلتَ نفسًا بغير حق!

- وهُمْ.. أين هم؟.. ما لي لا أراهم حولي؟.. هل يكون عذابهم أخفَّ وطأة من عذابي؟.. هل أُساق أنا إلى أعماق الجحيم بينما يحاسَبون هم فقط على ما ارتكبت يداهم؟.. ألن يكون جزاؤهم بقدر ما خرَّبوا ودمَّروا؟.. ألن يحاسَبوا على دمارهم الأكبر؟.. على خراب النفوس؟.. على أجيال ماتت بأيديهم، فدفنوها في بقاياهم، غلفوها بنسيج الذل والأسى، ودثروها برداء القهر والحرمان؟

- لقد قتلتَ نفسًا بغير حق.!

- ولو كنتُ أملكُ، لقتلتُ منهم ألف نفسٍ ونفس، لمثَّلت بجُثثهم، حتى يستريحَ كل من رأى منهم يومًا قسوة، ليسعدَ كل من ذاق منهم عذابًا، لينطقَ كل من كتم آلامه ولم يستطع أن يهمسَ بآهةِ ألمٍ خوفًا من توبيخٍ أو عقاب.

- لقد قتلتَ نفسًا بغير حق!

- نعم، لقد قتلتُ نفسًا بغير حق، لكني ما قتلتُ إلا نفسي، أرغمتُها أن تنغمسَ في أحزانهم، أن تشعرَ آلامهم، أن تتمزق لأوجاعهم، منعتُها السعادة حرمتُها الفرح، وكيف أشعر بالسعادة وهم حولي يتأوهون؟.. وكيف يأتيني الفرح وأنا أرى الشقاء في وجوه كل من عليَّ يُطلون؟.. كيف؟... لقد قتلتُ نفسي حين ظننت أن بيدي تغيير ما آل إليه حالهم، تبديل ما ارتضوه هم لأنفسهم، وكان أحق بهم أن يحاولوا هم، فتلك كانت قضيتهم، تلك أمانيهم، وتلك كانت حياتهم...

حقًا، لقد قتلتُ نفسًا بغير حق!

شرفة
نصف
مغلقة

ثـورة الشـك

وقفتْ على حافة الرصيف ترقبُ السيارات المندفعة في مطاردة محمومة، وهي تنهب الأرض في سباقٍ شرسٍ مع الزمن، قبل أن تغلق إشارة المرور ويبدأ المشاة في الهبوط إلى عرض الطريق.. نظرتْ يمينًا ويسارًا إلى جموع البشر المنتظرين في نفاد صبر، أنواع مُختلفة من البشر؛ مُختلفة الألوان والأحجام والملامح والأفكار، لكل منهم وجهة يوَليها، ولكل منهم اتجاه في الحياة، وعلى الرصيف المقابل استعدَّت جموعٌ أخرى لمعركة العبور... راحت تنقل بصرها بين الواقفين، تتأمَّل ملامحهم، لتدرك أنه ما من ملمح واحد في شخص ما يشبه أيًا من ملامح الآخرين، كلٌّ يحمل على عاتقه همومًا وواجباتٍ، كلٌّ يطوي في دفينة نفسه مشاعرَ وأحاسيسَ... تُرى بمَا يفكر كل منهم في تلك اللحظات؟.. أتراهم يفكرون فقط في العبور؟.. وإلى أين يذهبون؟.. من سيلقون؟.. وفيمَا سيتحادثون؟.. هل......

انتزعتْ نفسها من تأملاتها شديدة الفلسفية التي طالما لامتها نفسها عليها إذ لم تعد تصلح لهذا الزمان، استعدتْ للمواجهة حتى تتمكن

من العبور قبل أن تغلق الإشارة وتضطر للانتظار ثانية، فقد ملَّت الانتظار، لم تعد تحتمل مرور الثواني والساعات عليها وهى في حالة قلق وترقب، لم تعد تنتظر، حتى تدرك في النهاية أنها ما عانت وانتظرت إلا من أجلِ وهمٍ كبير، وضياع أكبر... حاولتْ أن تضبط زوايا جسدها، وتنكمش إلى أقصى درجة ممكنة، حتى تعبر وسط الأجساد المتلاحمة، وبالمثل حاولت الجموع المتقابلة أن تصنع فيما بينها من فراغات حتى يتخلل كل جمع المواجه له، ويستطيع الجميع النفاذ إلى الجهة الأخرى، وبعد حساب وتدقيق وتركيز عميق، انطلقتْ في طريقٍ مستقيم لتمرَّ بين جسدين قادمين أمامها، عبرت فيما بينهما بمهارة ونجاح، لكنها اصطدمت فجأة بجسد آخر لم يكن يسير في طريقه الصحيح، كان الصِّدام قويًا، حتى أنها كادت تسقط أرضًا، لكنَّ صدمتها كانت أقوى حين لم يحاول هذا "الدخيل" الإمساك بها، أو حتى مساعدتها في جمع أشيائها التي بعثرها حين أطاح بها في طريقه للعبور، تعجَّبت من تصلُّبِهِ أمامها، فهو لم يعاونْها على جمع أشيائها، لكنه أيضًا لم يتقدم للعبور، تراه وجدها عثرة في طريقه ولم يستطع تجاوزها؟.. أم أنه أراد أن يُشعرها بالذنب والخزي لأنها كانت سببًا في تأخره وعدم وصوله إلى وجهته؟.. لكنها ليست مخطئة، فقد قامت بحساب مسافاتها بدقة، ناورتْ، وتخطَّتْ كل مَن قابلوها، هو من أخطأ

الحساب، أم تراه لم يرهق نفسه أو يشغل باله بالتفكير؟.. قد يكون قد اعتاد أن يُفسحَ له الآخرون؟.. مهما كان من أمره، ففي كل الأحوال، هي ليست بمخطئة.

لملمتْ أشياءَها في سرعةٍ وهي تتحاشَى النظر إليه، وهمَّتْ بالانطلاق، لكنها لمحتْ قلمها الأثير الذي كانت قد أهدته إليها إحدى صديقاتها يرقد بين قدميه، نظرت إلى القلم ثم رفعت بصرها إلى الدخيل بنظرة خاوية، بلا معنًى، علَّه يمنُّ عليها ببعض الكرم ويلتقط القلم ليناولها إياه، لكنه ظل كما هو، لم يحرِّك له ساكنًا، ظلَّ ساهمًا، جامدًا، وكأنه تمثالٌ صُنع من كِبرٍ وغرور، تمنَّتْ لو أزاحت نظارته الشمسية باهظة الثمن كي ترى كيف ينظر إليها الآن، كي تعرف ما يفكر فيه، هل يراها إحدى الطفيليات العشوائية التي يزدحم بها المجتمع؟.. أما يراها إحدى اللاهثات دائمًا خلف شيءٍ ما؟.. أم أنه يعتقد أنها من فرط بساطتها خاوية لا حياة لديها ولا أحلام؟.. أم أنه يراها مجرَّدَ واحدةٍ، مثلها مثل كل الأخريات، لا تختلف عنهن في شيء؟

لا تدري لماذا شعرت بالحُنق والسخط عليه لمسلكه المهين نحوها، أشعرها صمتُه وعزوفُه عنها بضآلةِ حجمها، وقلة شأنها، حتى أنها خشيت أن يطأها بقدميه في غمرة تجاهله لها، لكنها لن تسمح لقدميه المزينتين بحذاءٍ غالٍ أن تطأ كرامتَها، فهي ليست كالأخريات، حتى وإن

كانت ملامحها البسيطة وتكوينها الجسدي يشي بأنها أنثى، مثل آلاف النساء، إلا أنها، كائنٌ مستقل، شخصية لها صفات ومزايا، لها آمال وطموح، لحظات فوز، وجبال من إخفاقات... تردَّدت للحظة وهي تتساءل عمًّا جعله ينفر منها؟.. هل هي قبيحة إلى هذا الحد؟.. أم أن غليان نفسها وثورات أحزانها قد بدلت ملامحها وجعلت منها مسخًا مشوهًا، تنطق كل خلية فيه بفشل يتبعه فشل، وصراع تتبعه هزيمة؟

وحين فقدتْ الأمل الأخير في مساعدتهِ لها، انحنتْ كي تلتقطَ قلمها الأثير، هل هو بحق قلمها الأثير؟.. ولماذا هو الأثير؟.. ألأنَّهُ الهدية الوحيدة التي قدمها إليها إنسان؟.. وهل قدمته إليها صديقتها؟.. أم أنها تركته لها حين أبدت إعجابها به؟.. هل كانت بالفعل صديقتها؟.. لماذا تنسج من خيالها حكايا وأوهامًا؟.. لماذا تلتقط أطراف خيوطٍ واهيةٍ قد تعني اهتمام أي شخص كان بها؟.. أين هي من الحياة؟.. أين؟

التقطت قلمها، ودون أن تقصد لمست طرف حذائه... وَجِلَ منها، أبعد قدميه في سرعة... ألهذا الحد يجدها كائنًا هلاميًا، لزجًا، مقززًا؟.. ألهذا الحد أشعرته لمستُها بالخوف والفزع؛ وكأنها شيءٌ مجهول الهوية؟

وفجأة، قطع دوائرَ دواماتها التي راحت تضيق عليه حتى كادت تزهق روحها حين قال:

- أرجو أن تغفري لي، فأنا كما ترين... كفيفٌ!

ارتدَّت للخلف في ذهول، نظرت إلى قدميها في إحساس طفولي بالذنب، إحساس طفلة أخطأت، وتعلم أنها تستحق العقاب، ماذا حلَّ بها؟.. لماذا أصبحت هكذا؟.. أين ذهبت ثقتها بنفسها؟.. لماذا باتت تشعر أن نظرات الناس إليها تحمل سخرية وامتهانًا؟.. لماذا أصبحت ترى في عيونهم الازدراء والاشمئزاز؟.. ولماذا صارت ترى نفسها كتابًا مفتوحًا أمام الجميع حتى من لا يعرفونها، ليرون في كل صفحة حكايةً، ووراءَ كل حكايةٍ جُرحًا وألمًا وخسائرَ فادحةً تدفعها من أيامها وعزة نفسها؟.. هل أضنتها الهزائم؟.. أما أنها قد استسلمت لتيار اليأس الذي عصف بنفسها واكتسح كل أملٍ فيها؟.. ماذا إن كانت قد أخفقت مرة؟.. وماذا لو أخفقت مرات؟.. ولكن، ماذا إن كانت حياتها سلسلة لا تنتهي من الإخفاقات؟..

لامت نفسها على ظنها فيه، وعلى تقليلها من شأنها، تمنت لو عاد بها الزمن لتصلح كل ما ارتكبته في حق نفسها من أخطاء، كي تستعيد بإرادتها كل ما قدمته من تضحيات... ابتسمت في حرجٍ، وهي ترفع بصرها إليه بنظرة تحمل كل ما استطاعت جمعه من معاني الاعتذار، كانت تعلم أنه لن يراها، لكنها تمنت أن يشعر بها، التفتت يمينًا ويسارًا، لكنه لم يكن هناك، استدارت تبحث عنه، وجدته على الجانب الآخر، بعد أن أخذ أحدُ المارة بيده ليعبر به الطريق.!

شرفة
نصف
مغلقة

كاتم الأسرار



لا أدري كيف أصبحتُ وحيدًا هكذا، لا أدري أين ذهب أهلي وعشيرتي، أصدقائي وأحبائي، أين أنا منهم، لا أدري كيف نشأتُ هكذا، بلا أهل، بلا أصدقاء، بلا أحاسيس أو عواطف حقيقية.

لا أذكر حتى كيف التحقت بتلك الوظيفة التي أشغلها الآن، إن كنتُ قد حصلت عليها بمجهوداتي الشخصية أم بمساعدة شخص ما، حقًا لست أدري... لا أدري إن كانت تلك الشقة التي أقطن فيها ملكًا لي، اشتريتها من مالي الخاص، ورثتها، أم أن شخصًا ما قد ساعدني في الحصول عليها... كما أنني لا أدري لماذا لم أتزوج حتى الآن، لماذا لم أبحث عمَّن يؤنس وحدتي... لماذا لم أنجب أطفالاً يحملون اسمي، ولماذا لم أبحث عن الاستقرار كما يقولون.

قد يكون السبب في عدم تفكيري في الزواج أنني كنتُ أخشى أن أفصم بتلك الزيجة عُرَى الصداقة التي ربطت بيني وبين وحدتي، وكيف أتخلى عن صداقة دامت معي عمرًا بأكمله، كيف أتخلى عن

وحدتي وقد نشأتُ وترعرعتُ في كنفها؟... وقد يكون السبب في عدم تفكيري في الزواج هو عدم رغبتي في إضفاء نوعٍ من التغيير، التوتر، أو إحداث أيٍّ خللٍ في حالة الاستقرار التي أحياها، فقد اعتدت كل شيء في حياتي، عملي، بيتي، كتبي، أدواتي، وحدتي، وأحزاني.. صار كل شيء في حياتي روتينيًا، محفوظًا، لكنه كان يمنحني الإحساس بالأمان، التوازن والاستقرار، نشأتْ بيني وبين كل شيء علاقة فريدة من نوعها، صرتُ أشعر بالأشياء، أحس وجودها، أخاف عليها، حتى صارت أشيائي هي دنيتي، أصدقائي، وكل ما لي في هذه الحياة.. لذلك خفت أن يدمِّر الزواج علاقتي بأشيائي، وبحياتي.

وقد يكون السبب في عدم تفكيري في الزواج - وببساطة - أن تلك الفكرة لم تخطر ببالي قط، فأنا لست في حاجة إلى الزواج، هكذا وبكل بساطة، فقد كانت حياتي تسير وفقًا لما خططت له أنا، أو كما أرادت هي لي، لم أكن أفعل فيها الكثير، لم أكن أقابل أو أعرف من الناس إلا القليل، ولم أكن أعلم عنهم إلا أقل القليل، فقط ما أحتاجه حتى أستطيع أن أحادثهم، أن أقيم مع أحدهم حوارًا منطقيًا معقولاً في موضوع ما، في حدود علاقة ما، يفرضها علينا موقف ما، أو تعامل ما... لكنى وللأمانة، لست أدري من أين امتدت جذور وحدتي هذه... لست أدري .

كل ما أعلمه أنني في فترة ما ـ لست أذكرها تحديدًا ـ قد بدأت أشعر بما أرق مضجعي، شتت أفكاري، وراح يهدد كياني وحالة استقراري... إنه الملل.!

فقد بدأت أشعر بالملل يتسرب إلى حياتي، وكان هذا بالنسبة لي مؤشرًا خطيرًا من شأنه أن يدمِّر كل ما حرصت عليه عمرًا بأكمله، من علاقات، من أحاسيس، أو عادات... كان تغيُّرٌ ما يطرأ عليَّ، تغير قد يقلب موازيني، وينهي السلام الذي عقدته مع نفسي لتحل مكانه ثورات، حروب ضروس، وحلول وسط مرفوضة دائمًا، واقتراحات غير مقبولة... حاولت أن أبحث عن حل ينقذني مما أنا مُقدِمٌ عليه من أهوال، من صراعات وويلات، كان تيار الملل يجرفني بسرعة لا تتيح لي أية فرصة للتحدِّي أو المقاومة، كان الضجر يُضيِّق عليَّ الخناق حتى يعجز تفكيري عن الوصول إلى حلٍ أستطيع به اختراق دائرة الحصار تلك إلى الخارج، سلكتُ كل الدروب، حاولتُ بشتى الطرق، لكني لم أفلح في الاهتداء إلى حلٍ مناسب... ومع ذلك فقد أتاني الحل بنفسه، وكأنه كان يرقبني منذ زمن، يعلم ما أنا فيه، يشعر تلك الحيرة التي تمزقني، يقرأ تلك الهواجس التي راحت تعذبني حتى كادت تقتلني.

ففي أحد الأيام، وأثناء عودتي من العمل، وعند دخولي إلى البناية، لاحظت أن هناك شيئًا ما ليس كالمعتاد، شيئًا ما قد تغير، خاصة بمدخل

البناية، شيئًا ما لم أكن أدري كنهه بعد، إلا أنه قد استرعى انتباهي، جذبني إليه، وجعلني أدرك أن هناك شيئًا ما لم أعتد وجوده من قبل، أن هناك شيئًا جديدًا، وربما كان شيئًا دخيلاً على البناية... وقفت قليلاً، رُحت أتجول ببصري ببطءٍ وهدوءٍ في أرجاء المكان، وأنا أحاول أن أستعيد مشهد المدخل القديم المحفور في ذهني، حتى أستطيع أن ألتقط ذلك الفارق، الاختلاف، ولكنْ؛ كل شيء كما هو، كل شيء كما اعتدته، إلا...... نعم هذا هو، فقد كان هناك - ولدهشتي الشديدة - مظروف أبيض يطل من صندوق البريد... نعم، صندوق بريدي أنا، فككل قاطني البناية كان لي بالطبع صندوق بريد في بهو البناية معلق عليه اسمي، إلا أنه كان دائمًا، فارغًا، خاويًا، متربًا، لم يُفتح من قبل، فلم يصلني خطابٌ واحدٌ منذ إقامتي هنا... ومن سيكتب لي؟.. مَنْ سيرسل لي خطابات وأنا كل أقاربي، كل أصدقائي ومعارفي... مَنْ؟!

أصابني الذهول وأنا ألتقط طرف المظروف من الصندوق، ورحت أفكر مليًا.. من تراه يراسلني، من ذا الذي يكاتبني، من يا ترى يعلم بوجودي في الحياة.. من؟

تردَّدت قليلاً، ثم وضعت المظروف في جيب سُترتي، ولا أدري ما الذي دفعني إلى ارتقاء الدَّرج بدلاً من استقلال المصعد، ربما كنتُ أخشى المواجهة، مواجهة ذلك الخطاب وما يحمله لي من مفاجآت، أو أنني

كنتُ أريد الحصول على المزيد من الوقت حتى أستطيع التكهن بفحوى الخطاب... أفقتُ من حيرتي وشرودي لأجد نفسي واقفًا وكأنني أنتظر من يسمح لي بدخول شقتي، أدرتُ المفتاح في ثقب الباب ودلفت إلى الداخل.

ما إن خطوتُ إلى الردهة، حتى أسرعتُ بإخراج المظروف وقمتُ بفضِّهِ بيدٍ مرتعشة، وأنا أهيئُ نفسي لتلك الحادثة الفريدة من نوعها، وما أن شرعت في قراءة الرسالة حتى أدركت أنها لم تكن لي، فقد كان العنوان المدوَّن على المظروف هو نفس عنوان البناية، لكن الخطأ كان في رقم الصندوق، فهذا الخطاب لم يكن أبدًا موجَّهًا إليَّ، بل كان لشخص ما، له علاقات بآخرين، يودُّهم ويودُّونه، يسألون عنه، ويتمنون لقياه.

لا أدري لماذا قرأت تلك الرسالة، تمعنت في كلماتها، عشت بين سطورها، ولماذا ظللت أيامًا أقرأها، أعيد قراءتها، أتخيلُ كاتبها، أتصورُ مشاعرَه في كل كلمة، انفعالاتِه في كل عبارة، أحاول أن أضعَ نفسي مكانه وأعيش تجربتَه، ألملم خيوط قصته حتى أصنعَ منها قصتي أنا... قد يكون الفضول، وقد يكون الوهم الذي عشته للحظات أن تلك الرسالة كانت موجَّهة إليَّ... وقد تكون الوحدة، وتلك الرغبة الدفينة في الإحساس بالحب والحاجة إلى الحنان.

ودون أن أشعرَ، صارت تلك هي هوايتي الجديدة، هوايتي التي أكسبتني إياها الصدفة وحدها، فرحت أجوب بسيارتي الشوارع والميادين، أنتقي البنايات، أجمع الرسائل من الصناديق، أقرأها، أطلع على خباياها، أعيش أحداثها، أفرح لأفراحها ويقتلني الحزن لأتراحها، ثم أعيدها في اليوم التالي من حيث أخذتها، لأبدأ دورة جديدة.!

كم دخلت من بيوت، وكم عرفت من أشخاص، وكم اطلعتُ على أسرار... وبمرور الوقت؛ أصاب تلك الهواية قسطٌ من التطوير، فبدأتُ أحتفظ ببعض هذه الخطابات؛ فقط ما يثيرني منها، ما يملك عليَّ خيالي، وما لا أرى ضررًا من اختفائها، بل على النقيض تمامًا، فأنا أعتقد أن اختفاء بعض تلك الخطابات قد ساهم في منع وقوع العديد من المصائب... كما أن هناك خطابات أخرى كنتُ أسارع بإعادتها نظرًا لضرورة إطلاع أصحابها عليها على وجه السرعة، إلا أنني أحيانًا كنتُ أحتفظ بنسخة من تلك الخطابات التي أعيدها... وراء كل خطاب حكاية، وربما حكايات، قد يراها البعض عادية، إلا أنني كنتُ أراها مؤثرة بشكل ما.

وبعد أن يتُّ أشعرُ أن حياتي لها بريقٌ ومذاق، بعد أن استبدلت استقراري القديم بآخر جديد، عاد ليظهر في حياتي ما قلبها رأسًا على عقب...كان أول خطاب يصلني أنا، أول خطاب موجه لشخصي، وجدته

ببابي، وبقدر ما أسعدني هذا الخطاب، وجعلني أشعر أنني كائنٌ حي، له ماهيةٌ ووجود، بقدر ما آلمني، وأصابني بالحيرة والقلق، لأنني لم أستطع التوصل إلى صاحب أو صاحبة الخطاب، ولأن النهاية كانت أوضح من أن تحتاج إلى تفسير... هلموا معي نقرأ خطابي...

عزيزي الأستاذ /

أشعر بالحيرة وأنا أكتب إليك، لا أدري كيف أبدأ حديثي معك، فكل البدايات التقليدية لا تناسب مكنون نفسي ومغزى كلامي، كما أنني لا أستطيع أن أبدأ بتقديم نفسي إليك أو مَنْ أكون لأن هذا آخر ما أفكر فيه، أو ما قد يرِدُ بخاطري، كما أنني لا أعلم إن كنتَ ستتقبَّل كلماتي وتفتح صدرك وقلبك لحديثي، أم أنني سأكون عبئًا عليك، وهمًّا لا شأن لكَ به... لكني قرَّرت أن أكتب إليك، أن أبوحَ لك بما في نفسي للمرة الأولى، والأخيرة... فأكثر ما يعذب الإنسان أن يأتي إلى الحياة ويفارقها ولم يشعر به أحد، لم يحزن لأجله أي مخلوق كان... ويعذبه أكثر إن جاء ورحل وقد كانت في نفسه كلمة يود لو سمعها منه إنسان... لذا، قرَّرت أن أطلعك على ما في قلبي، أنت وحدك، وليكن بعدها ما تشاء.!

كثيرًا ما رأيتك في غدوك ورواحك، وكثيرًا ما تساءلت عن سرِّ الحزن والهم البادي على ملامحك، الذي تنطق به قسماتك... تراك مثلي،

تشعر بالوحدة ؟.. لا تجد بين الناس رفيقًا ؟.. تودُّ أن تحيا، ولا تريدكَ فيها الحيلة ؟... أم تراك قد ضقت ذرعًا بالحيلة وما رأيتَ منها ؟.. أرهقتك كثرة الحديث، وأثقلت قلبك الأحزان؟... دارت بخلدي العديد من الأفكار، وقد تتساءل عن سرِّ اهتمامي بك وحدك، تستطيع أن تقول إنني كنتُ أحاول أن أشغل نفسي بك، أتخيلُ حياتك، أضعُ الأسئلة، وأجيب عليها، حتى أهربَ من نفسي، من حياتي التي كرهتُ كل ما فيها، من ندرة ما عشته فيها، فقد قطعت معها عهدًا منذ أمدٍ، وحافظت عليه... أقسمت لها أن أحيا في وحدة، وألا أقترب من إنسان، وبالفعل، لم يطرق بابي صديقٌ أو غريب، تخيلت أن فراغ حياتي يمكنني أن أملأه بما أريد، لكنَّ وحشة أيامي لم تكفها سنوات عمري، ولم تملأ نقطة في بحرها العميق، وأدركت حينها أنني قد فررت من سجن أيامي إلى سجن ذاتي، كي أحيا في وحدة، لا يؤنسني فيها إلا انكساري وآلامي... وفي لحظة ما، قررت أن أتراجع عن عهدي، أن أعترف بخطئي، أن أحني الرأس، وأعتذر للحيلة عن سوء فهمي... لكن الوقت كان قد فات، وصار دربي مظلمًا، موحشًا، لا يسير فيه غيري، ووجدتني أحث السير إلى الأمام، إلى النهاية.

وحين أدخلتُكَ حياتي، جعلتُ منك أملاً، حكايةً أتابعها كي يصبح لحياتي معنًى، ولانتظاري عذرٌ مقبول... أنتظر الغد كي أرقب ما يدور

بحياتك، كي أعلم كيف ستكون نهاية الحكاية... لكني وجدتك مثلي، تحيا وحيدًا، بلا ذكرى، أو انتظارٍ لجديد... فأيقنت أن حياتي باتت كابوسًا، حملاً زائدًا، وخشيتُ أن تطولَ لأعوام وأعوام، وكل يوم يأتيني مثل الأمس، ويبشرني بمثله في الغد، وحدة وآهة وعذاب... فساءلت نفسي، ولِمَ الانتظار إن كنا نعلم النهاية، إن كنا نقرأ طالعنا في يومنا، إن كنا نعلم أن الغد شَرَرٌ ونار.. فلمَ الانتظار ؟... وإن كان الحل بيدي، فلمَ لا أملك حق الاختيار؟.. لِمَ لا أُنهي تعاستي؟.. لم لا أقتل مللي ووحدتي، وساعات القهر والمرارة؟...

قد تقول إننا لا نعلم الأقدار، وإن الغد قد يحمل لنا ما لم نتوقعه، ما لم نفكر فيه، وقد يكشف لنا الكثير من الأسرار، لكني أؤمن بنفسي، وأعلم أن الغد لن يأتي إلا مثل الأمس، هزائم وتراجع بلا انتصار، إذن فلا غدٌ لي، كفاني الأمس وما رأيتُ فيه، وكفاني اليوم وما أعانيه، أما الغد، فسأتركه للأقدار، تمنحه غيري، تمنحُهُ من يريده، من لا يجد عناءً في الانتظار... أما أنت، فأتمنَّى أن أكون قد أخطأت في تفسير حياتك، وأن يكون لديك ما تخفيه، ما لا تُطلع عليه أحد، ما يشجعك على الحياة، ما يجعلك ترقب غدك حتى تدرك ما تتمناه، دون تعب، دون ملل، ودون أن يقتلك عذاب اللهفة، وطول الانتظار.!

أتمنى ألا أكون قد أثقلت عليك، لكنها كانت آخر أمانيٍّ، وكنتَ أنتَ آخر من يقرأ كلمة خططتُها بيدي، فاحملها مني ذكرى، وإن كنتَ لا تعرفني، فلنقل إنها... ذكرى إنسان.!

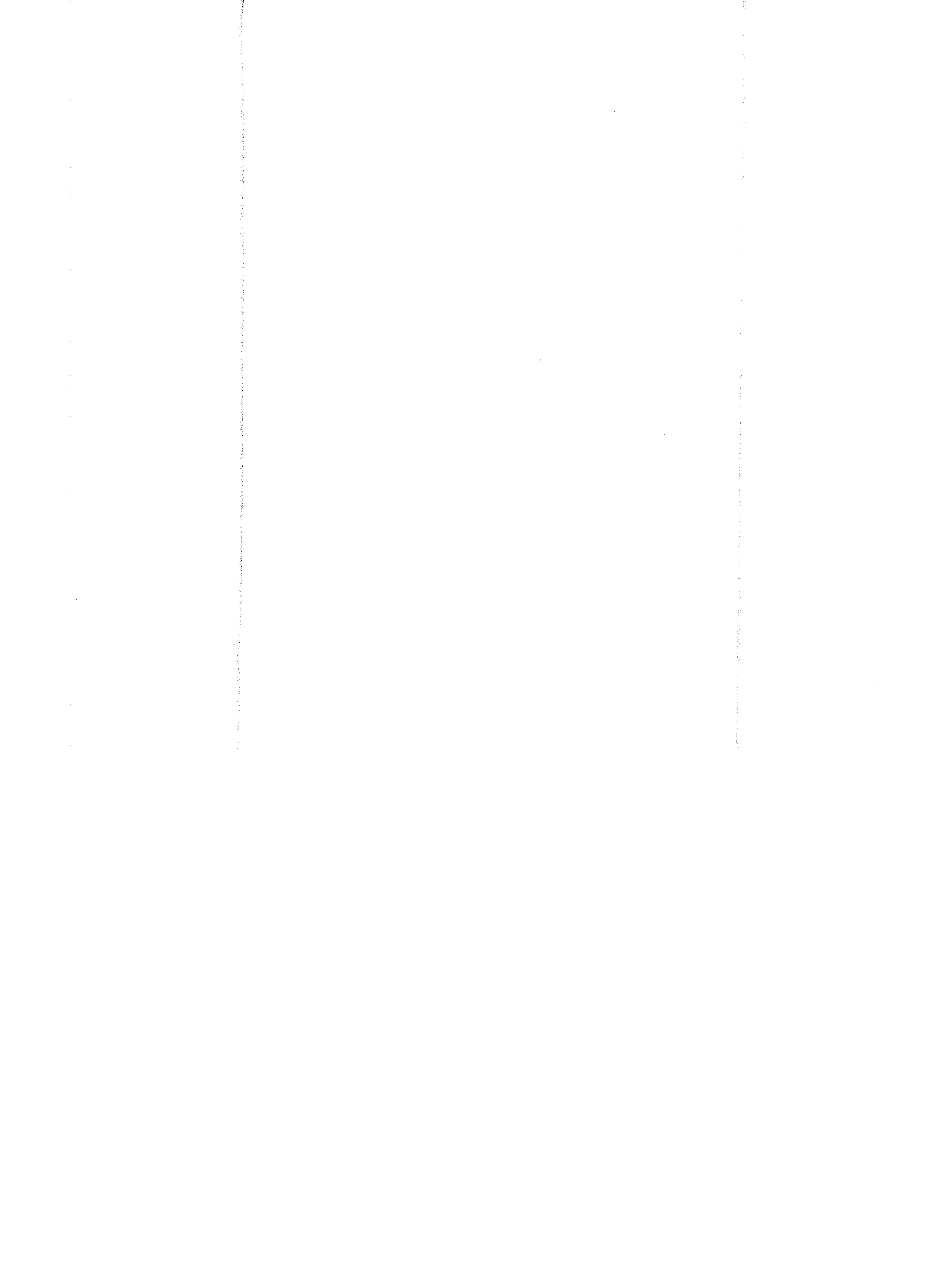
لا أظنني في حاجة أن أقول إن هذا الخطاب كان يحكي حكايتي، يسردُ وقائع حياتي... وتعجَّبتُ من أن يكون هناك من عاش أيامي، دون أن يعرفني، لكنى حينها فقط أدركت أنني لم أكن وحيدًا، لم أعاني وحدي، ولم أعش غريبًا بين الناس، بل إن هناك الكثيرين مثلي، وكان هناك مَن يرافقني، مَن يخطو معي على الدرب، خطوةً خطوة، مَن شاركني حياتي، مَن يملك أحزاني، من يرقبني ويأسى لحالي، وإن كان من بعيد.!

ومع هذا الخطاب كان هناك عصفٌ بذهني، فيضٌ من التساؤلات؛ ماذا يحدث إن علم أحد ما أفعله؟.. تراهم سيفهمون؟.. هل سيعذرون؟.. ولماذا لا أحاول أن أصل إلى كل من هم مثلي، من يحتاجون إلى عوني، من يهون عليهم حديثي مصائب زمانهم، ومصائبي، من يكفيهم أن أشعر آلامهم حتى وإن لم أستطع أن أبدل حالهم؟.. كيف أخبرهم أنني هنا، خلقت لهم، وعلى أهبة الاستعداد للإصغاء إليهم؟.. كيف؟.. كيف؟.

وأخيرًا، علمت من أنا، وماذا أود أن أكون، بل ما يجب أن أكون، أدركت كنه رسالتي في الحياة، وما خُلقت له... وحين امتلكت ناصية أمري، وتيقنت من أن هذا ما أريد، شرعت في تنفيذه... واتتني الفكرة التي أحيل بها فراغ حياتي إلى شُغلٍ دائم، الفكرة التي تجعلني أنفذ إلى كل القلوب، أطّلع على الأسرار، دون خوف من افتضاح أمري، دون خوف من مساءلة أو عقاب، لأنهم هم من سيسعون إليَّ، يلقون إليَّ بآلامهم وأوجاعهم حتى أُسرِّي عنهم وأواسيهم ببضع كلمات.

وأصبحنا أنا وكل الناس عائلة كبيرة، أصبح البشر الأصدقاء الذين افتقدتهم، عائلتي التي اغتربت عنها ولا أدري متى أو كيف... وحين تقرءون رسائلي، ستنضمون إلينا، فيزداد عدد أقاربي، وتتسع دائرة أصدقائي...

فمرحبًا بكم أعضاءً جددًا في عائلتي... مرحبًا بكم في... بريد القراء!



شرفة
نصف
مغلقة

قهر الرجال

- ١ -

لا أدري لماذا شعرت بهذا الخوف المبهم، وتلك الرعشة التي سرت في أوصالي، وأنا أهبط من صندوق العربة بين عشرات الرجال، لنقفَ صفًا واحدًا طويلاً أمام بوابة المعسكر في انتظار الدخول... ربما كان خوفي ينبع من تلك الحياة المجهولة التي كنتُ مُقدِمًا عليها، أوشك أن أبدأها، حياة لم أعرفها من قبل، ولم أسمع عنها.!

كانت حياتي قد انقلبت رأسًا على عقب في اثنتي عشرة ساعة هي فترة الليل لا أكثر، وكم كان هذا أقسى ليلٍ مرَّ عليَّ فحمل لي ما لم أكن أتوقعه، أو يراود حتى خيالي... كنا قد آوينا إلى الفراش بعد ليلةٍ هادئةٍ ناعمةٍ أضافت إلى أيام سعادتي يومًا جديدًا، دخلت إلى فراشي وأنا ابتسم لنفسي وأمنيها بصباحٍ مشرقٍ، وسعادةٍ متجددة... لا أدري متى غلبني النعاس، فقد تسلل النوم إلى جفوني رغمًا عني، وانتقلتُ من عالم الواقع إلى عالم الخيال، وبدا الحُلم كأنه استكمالٌ لسعادتي التي لم يشأ القدر أن يحرمني منها حتى في منامي، فرأيت أختي وقد ارتدت ثوبًا ناصعَ البياض، وأمي واقفة إلى جوارها تبتسم في حنان؛ كعادتها،

كانت أختي تحدثني عن ذكريات الأمس، تعلو ضحكاتنا فأشعر بنشوةٍ تسري في كل كياني، وفجأة... وجدتنا وسط حفلٍ صاخبٍ، سطعتْ أضواءٌ مبهرة، ارتفعتْ فرقعةُ الصواريخ ابتهاجًا بالحفل الكبير، تتابَعَ انفجارُ الصواريخ، وإذا بي أصحو على هزّاتٍ عنيفة سريعة، فتحتُ عيني في فزعٍ لأجدَ أمي تصرخ فيَّ، وهي تمسكُ بيد أختي وتأمرني بسرعة النهوض... لا أدري لماذا شعرتُ بتلك البرودة التي تجمدت لها أطرافي وراحت تسري في كل أنحاءِ جسدي بسرعة رهيبة، قد يكون ذلك من وقع المفاجأة على عقلي المشوَّش الذي ما زال بين النوم واليقظة، وقد يكون ذلك لأنَّ حُجرتي قد أصبحت تقريبًا بلا سقفٍ يظللها بعد أن أطاحت به الانفجاراتُ المتعدِّدةُ مع معظم جدران وأسقف الدار، فتسلل بردُ الشتاءِ حادًا قارصًا ليحطمَ كل آمالي، ويجمِّدَ دفءَ أسرتنا الصغيرة.

هرولتْ أمي إلى الخارج؛ ونحن معها؛ لا ندري أين نذهب، أيَّ اتجاه نتخذُ، وأيَّ طريق نتبعُ، تنقلنا بين الشوارع مع الجموع الفارَّة، الخائفة، وفي نهاية رحلتنا وصلنا إلى ما يشبه مكانًا للتجمع، ساحة انتظار، نقطة لقاء... وكانت كلما مرَّت جماعة ورأت ذلك الكم من البشر، أوت إليهم، تمركزت معهم، في انتظار اللا شيء، فقط وجودهم معًا يمنحهم الأمان، ويبدِّدُ بعضًا من مخاوفهم.!

جلسنا على الأرض، تتوسطنا أمي التي احتضنتنا في قوة، وهى تبكي خوفًا علينا من المجهول، بعد أن فقدنا كل ما نملك في لحظات، ولم يتبقَّ لنا سوى أيام من خوف مبهم.

لا أدري لماذا تذكرت أبي في تلك اللحظة، أبى الذي انصاع لأمر القدر وتركنا مرغمًا، فقد مات أبي وعمري لا يتعدَّى السنوات الثلاث ـ أي منذ ما يقرب من ثلاثة عشر عامًا ـ وكانت أختي حينها تبلغ من العمر خمسَ سنوات ليس أكثر... لا أدري لماذا شعرت أنني قد أقابل أبي الآن هنا، قد أنظر فأجده يندفع إلينا من بين هؤلاء التعساء المُشرَّدين، معلنًا أنه كان بعيدًا عنا، غائبًا لكنه يرقبنا، ينتظر اللحظة التي يظهر فيها لينقذنا، ليحمينا من أيِّ سوءٍ قد يحيق بنا.!

مرَّت علينا ساعاتٌ طوالٌ ونحن جالسون، نفترش الأرض، يقهرنا البرد، ويحيط بنا المجهول... وحين ظهرت بشائر الصباح على الوجوه الحزينة، والعيون الدامعة، والملابس الممزقة القذرة؛ كان الجميع في انتظار من يخبرهم بمصائرهم... تتلاقى العيون ثم تفترق بعد أن يتسكع بينها حديثٌ صامتٌ يدور في فلك سؤال واحد : وماذا بعد؟...

ومع أول خيوط الصباح انسابتْ أشعة الشمس التي لم تكن ذهبية كما اعتدت أن أراها دومًا، بل صارت رمادية بعد أن حملت أثرًا من كل ما مرَّت عليه من خراب ودمار، من حرائق ونفوس ممزقة وأرواح مهزومة.

وفجأة استدارت كل الرؤوس مع اقتراب صوت هدير مُحركِ سيارةٍ كبيرةٍ، كانت كل النظرات مفعمةً بالأمل، مليئةً بالخوف، كنا نأمل أن يكون هناك من أتى لإنقاذنا من ذلك المصير المجهول، كما كنا نخشى أن تكون تلك السيارة قد أتت لتكمل ما بدأ بالأمس ونحن أمامها بلا ساتر أو ملاذ.. ومع اقتراب السيارة أكثر؛ زاد انكماشنا، زاد التصاقنا ببعضنا البعض، زادت حِدَّةُ التوتر، وقفزتْ التساؤلات من محاجر العيون... اقتربتْ منا السيارة ثم توقفتْ، وتبعتها سيارة أخرى، هدأتْ الأنفس، زال التوتر، سطع في الأعين بريق الأمل، قفزت في خيالنا الأماني ولعبت برؤوسنا الأحلام.

هبط ضابطٌ من كل سيارة، والتفَّ حولهما بعض الجنود، تحدثوا إلينا في رفقٍ ولينٍ لا يخلو من حزمٍ وصرامةٍ معلنَيْنِ أنه سيتم اقتيادنا إلى معسكرٍ مؤقتٍ لإيوائنا حتى يتم دراسة ما سيكون... ثم حدث ما هزَّ كياني وأثار في نفسي الهلع، حيث أمرنا الضابط أن ننقسم إلى مجموعتين، النساء والأطفال في مجموعة، والرجال والشباب ممن هم فوق سن الثالثة عشر في مجموعة أخرى، حيث لن يسمحَ الزحامُ الشديد بوضع الرجال والنساء في مكانٍ واحد.
نظرتُ إلى أمي وأنا أتساءل في رعب: كيف يا أمي؟.. كيف؟.. ماذا أفعل وحدي؛ بدونك؛ بعيدًا عن أختي؟... ردَّتْ إليَّ أمي نظرات الخوف

والضياع، كانت تعلم أنه قد حان وقت الفراق، وأن أسرتنا الصغيرة قد تشتَّتتْ... قرأت في عينيها أن فراقنا قد يطولُ للأبد.!

صعدتْ أمي وأختي إلى سيارة النساء، بينما صعدتُ أنا إلى عربة الرجال، كانت أختي في حالةٍ من الذهول، لا تدرك شيئًا مِمَّا يدور حولها، وكأنه قد ضرب بينها وبين الواقع بساتر فعزلها عما حولها... لوَّحتُ لهما مودعًا، وتأملتُ مجموعة الرجال من حولي فلم أجد لي رفيقًا في مثل سني، كان معظمُ القافلة ممن تخطوا سن الثلاثين، أما البقية فقد كانت من الشيوخ الذين لم يعد ما يدور حولهم يشكل لهم أيَّة أهمية... وهكذا بدأت رحلتي.. بين الرجال.!

- ٢ -

فُتحت أبوابُ المعسكر، تقدمنا يلفنا الحزن، تحيط بنا الآلام، ويتبعنا الخوف مما هو آتٍ، وبعد أن أصبحنا في ساحة المعسكر؛ أُغلقت خلفنا الأبواب... نظرتْ حولي فلم أجد سوى مجموعة من الخيام كبيرة الحجم التي تناثرت بشكل عشوائي، وقد وقف على أعتابها عشرات الرجال ذووا هيئةٍ رثة، وشُعُورٍ مُشعثة، يبدو عليهم التعب والإرهاق، أنهكت قواهم من قلة الطعام، وطول الانتظار.

بدأ الضابط المسؤول في توزيع الوافدين الجُدد على الخيام، كان عددنا يتجاوز المائة وعشرين وافدًا، فوضع في كل خيمة ما يقرب من عشرة أشخاص من المستجدين... تقدم أحد الواقفين ـ والذي كان يبدو أنه المسؤول عن الخيمة التي كان يقف أمامها ـ ليخبر الضابط بإلحاح أنه لا يوجد مكان حتى لوضع قدم في الخيمة، وأنهم قد أصبحوا ينامون على فترات بالتناوب حتى يتمكن الجميع من النوم بارتياح... نظر إليه الضابط ولم يجبه، ثم أعلن أن الأمر متروكٌ لقائد كل خيمة لتنظيم أماكن النوم والتعاملات بين الأفراد.

سرتُ مع مجموعتي إلى الخيمة التي تمَّ توجيهنا إليها، إلى مقرِّي الجديد... كان المسؤول عن الخيمة رجل ضخم الجثة، قاسي الملامح، غليظ الوجه، يبدو أن شدة التعب وطول المعاناة قد أكسبته من القسوة ما لا يرجئ معه أي عطف أو لين... دلف إلى الخيمة ونحن من ورائه، حيث سارع قُدامَى قاطني الخيمة باتخاذ أماكنهم حتى يحفظ كل منهم موضعه، فأمر القائد بإزالة جميع الأغطية والأمتعة حتى يتم إعادة تقسيم مساحة الخيمة، لتستوعب العدد الجديد، ثم أخرج قطعة من الطبْشُور الأبيض وراح يحدِّد بها المساحة المخصصة لكل فرد، والتي يتعيَّنُ عليه أن ينام فيها بين خطين لا يمكن تجاوزهما... أما كيفية النوم في هذه المساحة الأكثر من ضيقة فمتروك لتصرُّفِ الفرد نفسه، وحُسن استغلاله لها، وتكيُّفه مع هذا الوضع الجديد... وبالطبع فقد راعَى القائد في تقسيم المساحات أن يحصلَ قُدامَى الساكنين على مساحات أكبر وأوفر؛ احتكامًا إلى قانون الأقدمية والأحقية، ولكي يتحاشى أيضًا غضبهم وسخطهم، ويقمع حالة التذمر التي ظهرت بوادرها على الوجوه. وحينما اقترب مني القائد؛ نظر إليَّ في لا مبالاة، ثم رسم لي خطين يكفياني بالكاد كي أنام على جانب واحد، فلا أستطيع حتى الاعتدال كي أنام على الجانب الآخر... نظرتُ إليه دونما تعبير، وأنا أعلم أنني مغلوب على أمري، لا خيار لي.. وعندما همَّ القائد بالانتقال إلى من

يليني، اقترب منه شابٌ في منتصف العشرينيات، وسيم الملامح، حاد العينين، قوى البنية، وهمس إليه ببضع كلمات ثم دسَّ في يده شيئًا ما، فابتسم القائد ابتسامة سرعان ما اختفت، ثم التفت إليَّ وألقى عليَّ نظرةً سريعة، ولا أدري لماذا نظر إليهما الجميع ثم نظروا إليَّ جميعًا في آنٍ واحد، ولم يلبثْ أن ولانا ذلك الشاب ظهرَهُ وعاد إلى مكانه مرة أخرى، في ركن قصي من الخيمة، ولم يُلقِ بالاً حتى بالنظر إلينا مرة أخرى... وفجأة نظر إليَّ القائد وهو يسألني بصوت أجش:

- ألم أحدِّدْ لك مكانًا لنومك بعد؟

نظرتُ إليه في دهشة، ثم أومأت برأسي وهممتُ أن أجيبه حين أضاف:

- هيا، اتبعني.

فتحت فمي لأخبره بأنه قد حدَّد لي بالفعل مكانًا لإقامتي، إلا أنه نظر إليَّ في حدة وهو يصيح:

- ألم أقل اتبعني؟... هيا، فمازال أمامي الكثيرون.

وأمَرَ من كان بعدي أن يستقر في المكان الذي كان قد حدَّده لي.

تبعته مُستسلمًا، طائعًا؛ لا عن رغبة، ولكن عن اضطرار... سرنا حتى نهاية الخيمة، وإذا به يحادث نفسَ الفتى الذي كان قد تحدث إليه من قبل وسارع بتغيير مكاني بعدها، بادره قائلاً:

- هيا يا مناضل، حاول أن تفسح له مكانًا بجوارك، يجب أن نتعاون حتى تمرَّ تلك الأزمة.!

ثم أضاف في لهجة متهكمة:

- إن كانت ستمر.!

نظر إليَّ مناضل نظرة جوفاء، بلا معنًى، ثم سألني في برود ولا مبالاة:

- هل لديك أية أمتعة؟.. هل لديك ما تنام عليه؟

هززتُ رأسي نفيًا وأنا أجيبه:

- كلا، لقد تهدَّم المنزل، ولم نستطع الحصول على أي شيءٍ، إنني.......

قاطعني قائلاً وهو يلوح بيده:

- إذن فلا داعي لإعادة ترتيب الفراش، ستنام بجواري بدلاً من النوم على الأرض في تلك البرودة القارصة.

نظرتُ إليه في امتنان، وددت لو أشكره، لم تسعفني الكلمات، جاوبتُهُ بهزة من رأسي تعني الموافقة والعرفان بالجميل في نفس الوقت، وفجأة دقَّ جرسٌ حاد، حقيقة لم يكن جرسًا بالمعنى المفهوم بل كان قرع ملعقة على آنية معدنية كبيرة، ففهمت بالطبع أن هذا إيذانًا بقدوم الطعام... هرول الجميع إلى الخارج، وكل منهم يحمل إناءً ليجلب فيه طعامه... لا أدري لماذا مكثتُ مكاني لا أقوى على الحركة، لا أدري ماذا أفعل، ربما لأنه لم يكن لديَّ ما أحمل فيه الطعام، ربما لأنني لم أعتد ذلك بعد، وربما

لأنني كنتُ تائهًا، أفكر فيما ينتظرني من بؤسٍ وشقاء، أفكر في أمي وأختي وما تفعلانه الآن، هل يفكران فيَّ كما أفكر فيهما؟.. هل هما مثلي، يشعران بمثل تعاستي وضياعي؟

انتفض جسدي فجأة وأنا أشعر بيد صلبة قوية تستقر على كتفي، أفقت من شرودي على صوت مناضل وهو يقول:
- هيا ستشاركني طعامي، فكما تعلم أنتم جدد، ولم يتم إدراجكم في جداول الطعام بعد، لذا فلا طعام لكم اليوم، لكن هذا الطعام يكفينا معًا... حاولت أن أشكره، أخبره بأني لست جائعًا، لكن نظرات عينيَّ والعبرات المختنقة فيهما لم تمنحني الفرصة.
جلسنا معًا على حافة فراشه ـ الذي أصبح فراشنا ـ نأكل معًا، ثم سألني فجأة:
- أنا لم أعرف اسمك بعد.!
أجبته بابتسامة حزينة:
- عمر... عمر، يا مناضل.

- ٣ -

زحف الليل في بطءٍ وملل، اكتنفتْ الظلمة كل أرجاء المعسكر، راح الجميع يستعد للنوم، سرحتُ بعيدًا بخيالي، رحت أفكر في بيتي، أمي، أختي، حياتي السابقة المترفة التي لم أعرف فيها بؤسًا ولا شقاءً... كنتُ أفكر في فراشي الدافئ، غطائي الناعم الوثير، ضحكات المساء، أمسيات السُّمر... تذكرتُ حلمي الذي لم يكتمل، تذكرتُ صواريخ الحفل التي صارت صواريخًا دمَّرت حياتي، انفجرت في نفسي فحولتها إلى أشلاء.

اتخذ كل فرد موضعه، أُطفئَتْ لمبة الخيمة، فغرق الجميع في ظلام دامس، وساد صمتٌ رهيبٌ وسكونٌ مقبضٌ لم يكن يُسمع فيه سوى صوت التنفس الرتيب، وهمهمات النيام في أحلامهم المفزعة.

تحرَّك مناضل جواري وهمس إليَّ:

- يجب أن تنام يا عمر، فسوف يستيقظ الجميع مبكرًا وكأنهم في انتظار شيء ما، حدث ما، أو كأنهم ذاهبون إلى مكان ما، وبأيةِ حال يجب أن تستريح.

همستُ إليه بصوتٍ ضعيفٍ أنهكه الحزن ومزَّقته الذكريات:

- لا أستطيع، النوم يجافيني، لكني سأحاول، سأحاول.!

ألقى عليَّ مناضل تحية المساء، وتمنى لي نومًا هادئًا، ثم أدار لي ظهره وانقطع صوته تمامًا، وغرقتُ أنا في تأملاتي، رحتُ أقارن بين حياتي السابقة وما آل إليه حالي الآن... دخلت في دوامة من الآلام أسلمتني إلى أحزاني وأثارت شجون نفسي... شجعني الصَّمت وسكون الليل وشعوري بالوحدة وتلك الظلمة الحالكة على البكاء، فانسابتْ دموعي حارقةً ملتهبةً تحفر في قلبي أخاديدَ آهاتٍ وآلام... ازداد بكائي، ودون أن أدري علا نحيبي، وراح الحزنُ يعزف على أوتار معاناتي، فأرهقني وأضناني، وضاعف من شعوري بالوحدة والضياع... انتفض جسدي بغتةً وتنبَّهتْ كلُّ حواسي حين شعرتُ بحركة بجواري، والتفتُّ لأجد مناضل قد اعتدل جالسًا، ورغم الظلمة رأيته يرمقني بنظرات نارية وهو يعنفني قائلاً:

- هل ستظل الليل تبكي كالنساء؟.. هل تخاف النوم بعيدًا عن حضن أمك، أم أنك تخاف الظلام؟.. ألن تتعلموا أبدًا كيف تصبحون رجالاً؟ ألن تتعلموا أبدًا كيف تحيون حياة الرجال؟... يجب أن تنسى حياة النعومة التي اعتدتها، حياة الرفاهية والدَّعة، يجب أن تعلم أنك منذ وطأتْ قدمُكَ هذا المعسكر قد أصبحت رجلاً.

ثم حدَّجني بنظرةٍ ساخرةٍ، وهو يضيف:
- وإن كنتُ أشكُّ في ذلك.!

أصابني الذهول، ألجمتني المفاجأة، عقدتْ لساني الدهشة... تمالكتُ نفسي، استنفرت قواي، حاولت أن أتكلم، أدافع عن نفسي، عن كرامتي، عن كبريائي... اختلط ضجيج ثورتي بآهاتي وبكائي فلم أزدد إلا نحيبًا... أشعل بكائي ثورته، شعرت بلطمة قوية كادت تقتلعني من مكاني، كان أثرها على نفسي أقوى بكثير من ذلك الألم الذي تركته يرتع في جسدي... احترق كياني وأنا أشعر بالمهانة والذُّل، فهذا آخِرُ ما تصورته، وما لم يخطرْ ببالي... أصابني الفزع وأنا أتخيل ما ينتظرني وما هو قادم، سالت دموعي غزيرةً وأنا أرتعد في قوة... حاول مناضل أن يهدِّئ من روعي، ولكن ما إن وضع يده عليَّ حتى انتفضتُ بشدة، تخيلتُه حاقدًا، جاحدًا، يتسلط عليَّ، ينتقمُ مِنِّي لمعاناته، إلا أنه همس في أذني بحزنٍ حقيقيٍّ وندمٍ واضح:
- صدِّقني، أنا نادمٌ لما حدث، لكنك لا تعلم شيئًا، لا تعلم شيئًا.!
لم أجبْهُ، فلم أكنْ أبغي منه إيضاحًا، لا أريد تفسيرًا، ظلَّ الدمع سيلاً لا ينقطع، أمسكَ بيدي، حاولتْ أن أسحبها منه، إلا أنه كان أقوى مني وأسرع، جذبني بقوة فأنهضني، ثم سار بي محاذرًا ألا نطأ أحد النائمين تحت أقدامنا... صرنا خارج الخيمة، كان الضوء يصدر عن قمر تحجبُهُ

السُحب، تحيط به برودة، تلفه الأحزان، وتخنقه العبرات... نظر إليَّ في ثبات، إلا أنني حاولت الهروب من عينيه، لكنه أمسك رأسي بين يديه وهو ينظر إليَّ في قوةٍ وإصرار، وحزنٍ صارم، ثم قال:

- عمر، أنت لا تدري ما قد يحدث في مجتمع كله من الرجال، الكل محروم، الكل لديه رغبات، الكل يريد، ولا وسيلة للإشباع، الجميع ينتظرون، ولا أحد يأتي أبدًا، قد لا تدرك ذلك، لكني أنقذتك اليوم، فإن لم تكن بجواري لكان ما حدث لك أفظع، وما حاق بك أسوأ بكثير... أنت لا تعلم ما قد يحدث إذا ما أحسوا منك الضعف أو استشعروا فيك الرقة، إن الحاجة والرغبة تخيل لهم الكثير، وتعمي أبصارهم عن أشياءٍ أكثر... هل تدري كم مكثتُ أنا هنا، في هذا المعسكر؟... اثنتا عشرة سنة، نعم، اثنتا عشرة سنةً كاملة، لم أرَ فيها امرأةً سوى مرة واحدة، وبعد أن رأيتها ظللت أتخيلها ليل نهار حتى عجزتْ قدمايَ عن حمْلي في نهاية الأمر... وبمرور الوقت، لم يعد الخيال يكفيني، امتلأت جوانحي بالرغبة، كادت نفسي تنفجر بما تحمله من طاقات مكبوتة ورجولة مُقيَّدَة... إن مجتمع الرجال سيعلمك الكثير والكثير، فلهذا المجتمع قوانين أنجبتها الحاجة، وصدَّق عليها اختلال التوازن الطبيعي داخل ذلك المجتمع... هناك أشياءً ستراها لم تكن حتى تسمع عنها أو تتخيل وجودها، إلا أن الواقع يفرض علينا أحيانًا ما لا

يمكن قبوله أو التفكير فيه في الظروف العادية، الطبيعية... لكنك في النهاية ترضخ، تستسلم، تضطر إلى الاندماج معهم، الامتزاج بمجتمعك الجديد. إن الرجال هنا لا أمل لهم، وما يزيد من معاناتهم أن معظمهم كانوا أزواجًا، لهم أُسَرٌ وزوجات، وبعضهم هنا منذ عشر سنوات أو يزيد... هل تفهم ما أعنيه؟ أنا لا أدافع عن نفسي، ولا أفخر ما قدمته لكَ،

أو ما أسديته لك من صنيع، لكن صدقني، لولاي لم تكن تدري ما قد يحدث لك إذا تركتك بين أيديهم.!

نظرت إليه في هلعٍ، وأنا أتساءل إن كان هذا هو رأي الجميع، إنها كارثة، ماذا سأفعل وحدي؟.. كيف السبيل إلى المقاومة؟.. كيف؟

وكأنه قد قرأ أفكاري، استشف ما يدور بخلدي، اقترب مني متوددًا، معتذرًا، ثم ربت على كتفي قائلاً:

– ولكن، ما دمت معي فلا تخشى شيئًا، لن يقترب منك أحدٌ إلا بإذني، وأنا لن أسمح لأي مخلوق بالاقتراب منك، أيًا كان، فأنت معي، مع مناضل.!

لم أدرِ هل أشكرُهُ على حمايته لي، وفرض سطوته على الجميع من أجلي... أم أخشاه، ألعنه، وأنفر منه؟... حِرْتُ جوابًا، نظرتُ إليه صامتًا، لم أجدْ سوى دموعي لتعبر عن حيرتي، وددتُ لو سألته: وهل ستحميني

بلا مقابل؟.. أم أنني يجب أن أدفع ما لا أملك وما لا أطيق؟.. وأي ثمن تريد يا ترى؟

ويبدو أنه قد حدث ما أود سؤاله عنه بعد أن تاهت مني الكلمات وعجزت عن الحديث؛ فنظر إليَّ نظرة خاطفة وهو يقول:

- هيا لننام الآن، ولنكمل حديثنا غدًا، فما أطول الأيام هنا!

- ٤ -

دلفنا إلى الخيمة متسللين كما خرجنا منها متسللين، دخلتها تائهًا، لا أدري ماذا أفعل، فقد صرت أخشاه، أخاف الاقتراب منه، فكيف إذن سأنام بجواره، في فراش واحد؟.. كيف سنتدثر بنفس الغطاء؟!

جلس مناضل على حافة الفراش، طال وقوفي أمامه، أمسك بيدي ظنًا منه أنني لا أرى موضع قدمي، جلست إلى جواره، فاعتذر لي مرة أخرى عمًّا بدرَ منه، ثم ألقى عليَّ تحية المساء ونام.

أرحت جسدي بجواره وأنا أحاذر ألا أقترب منه، تذكرت ما حدث، شعرت أن عقلي على وشك الانفجار من كثرة ما يدور برأسي من ظنون، ومن فرط أحزاني اندفعت الدماءُ إلى رأسي حارةً، خانقةً، تذوب لها شراييني، فتضيع معها معالم حياتي، تمحو ذكرياتي لتشكل هي ما تبقَّى لي من أيام، ترسم حياتي المقبلة طبقًا لقواعد العالم الجديد، عالم الرجال.!

لم أستطعْ النهوض ذلك الصباح، شعرتُ بقوايَ وقد خارت تمامًا، كنتُ أشعر بمطارق تهوي على جسدي فتفتِّتُني قطعًا، تريقُ الدماء على

جوانب صفحات أيامي؛ فتخضب بها كل حكاياتي، كانت أنفاسي تخرج حارة ملتهبة كقبس من نار اشتعلت في أعماق الجحيم، وكان من الواضح أنني أعاني من حُمَّى شديدة، وعندما تحاملتُ على نفسي وفتحت عينيَّ بصعوبة وجدته هناك، بجواري، كان مناضل يمسك بيدي، ينظر إليَّ بألمٍ وحزنٍ عميق، وكأنه يشعر أنه سبب كل ما أصابني، وما حلَّ بي... اقتربَ مِنِّي قائلاً بعتاب لا يخلو من نبرة مرح وسعادة:

- هكذا، من أول ليلة لك معنا، إن مرضك هذا تعبيرٌ عن رفضك لنا وعدم ارتياحك بيننا، لم أكن أدري أنك تضيق بنا لهذه الدرجة.!

حاولتُ أن أتفوَّه ببضع كلمات كي أوضِّح له أن المرض قدر وليس اختيار، لكني لم أكد أحرك شفتاي حتى سبقني صوت غليظ أجش قائلاً بسخرية:

- إنه لم يعتد حياتنا بعد، فهي حياة شديدة القسوة والخشونة بالنسبة له، وهو لم يزل بعد رقيق، ولكنه يا مناضل خطأُك أنت أيضًا، فالجو شديد البرودة، ويبدو أنك لم تمنحه دفئًا وفيرًا؛ ليس كما ينبغي.!

أحسستُ بألمٍ مُمِضٍ من جرَّاء تلميحات الرجل الساخرة، كانت كلماتُه طعناتٍ مسمومةً موجهةً إلى كبريائي، فهمتُ ما يرمي إليه الرجل، ابتلعتُ ريقي بصعوبة بالغة وأنا أتظاهر بأني في حالة عدم إدراك بين اليقظة والنوم، حتى أعفي نفسي من حرج الموقف، ولمحتُ

مناضل ينظر إليه بشراسة، نظرة تحمل من التهديد والوعيد الكثير والكثير، فتراجع صاحب الصوت الخشن دون أن ينبس بكلمة أخرى، ثم تمنى لي سرعة الشفاء وهو ينصرف، فعاجلني مناضل قائلاً:

- لا تنزعج، فلم يكن يعني ما قال.

تظاهرت بعدم الفهم، وسألته في دهشة مصطنعة، لا أظنها قد خدعته:

- لم يكن يعنى ماذا؟.. ماذا قال؟

تردَّدَ مناضل قليلاً ثم قال:

- أقصد كونك رقيقًا لا تحتمل قسوة الحياة هنا، لقد اعتادوا الخشونة من طول بقائهم هنا فصاروا قسلةً، غلاظًا، طبعهم الفظاظة، مثل كل شيء هنا.!

نظرت إليه أن "نعم، أفهم ذلك، لا عليك" ، لكنه أضاف في صوت هامس:

- لكنك لن تصبح مثلهم أبدًا، فأنت مختلف، حتى عني أنا.!

أغلقت عيني وتجاهلت تلك الكلمات وكأني لم أسمعها، تظاهرت بأنني قد رحتُ في سُباتٍ عميق، ربَّتَ مناضل على يدي، حرَّرها من يده، أحكم عليَّ الغطاء، ثم تركني وذهب.

لازمتني الحُمى ما يقرب من خمسة أيام، أحيانًا كانت تشتدُّ فيها وطأة المرض عليَّ، وأظل أهذي بكلماتٍ غير مفهومة لا رابط بينها، أحيانًا

أغرق في ذلك النوم المرضي الذي يهبط عليك فجأة دون سابق إنذار، وأحيانًا أخرى كنتُ أتماثل للشفاء حتى أظن الحُمى قد ولَّت عنِّي، ذهبتْ بلا رجعة، ثم أعود لأسقط في دوَّامة المرض من جديد.

كل ما أتذكره عن تلك الأيام أن مناضل كان دائمًا معي، يمسك بيدي، ينظر إليَّ في ألمٍ وإشفاق، كنتُ أشعرُ بعذاب ضميره لما اقترفه في حقي، فقد كان يشعر أنه سببٌ ما أنا فيه، سبب مرضي واقترابي من حافة الموت بعد كل الإهانات والتقريع الذي لاقيته منه، ولا أنكر أن الموت قد بدا لي نهاية قريبة، مريحة ومناسبة جدًا لما أنا فيه، ولا أنكرُ أنني قد أشفقتُ عليه أيضًا فما كنتُ أكادُ أفيقُ إلا وأجده بجواري، في أيِّ وقتٍ كان، بدأتُ أشعرُ أنه قد أقلع عمَّا كان يدور بعقله حيالي، بدأتُ أشعرُ أنني قد أصبحتُ صديقًا له، وأنه يُكنُّ لي بعض الحب والاهتمام.!

تماثلتُ للشفاء، واستعدتُ بعضَ قواي بعد عناء، وكان أول شيء فعلته أن جلستُ بين يديه شاكرًا له رعايته لي وعنايته بي، وكل ما فعله من أجلي أثناء فترة مرضي، وبادرني هو قائلاً:

- أتمنى أن تكون قد سامحتني، اغفر لي غِلظتي معك وقسوتي عليك، لقد أدركت بالفعل أنك مختلفٌ، ولا أكتمكَ سرًا فإن سبب ثورتي عليك في بادئ الأمر كان بدافع من غيرة، لقد كنتَ صورة حية لكل ما حرمتني منه الدنيا، كل ما أردته وراودني عنه الزمن، فدفعت ثمنه مقدمًا

ثم أدارت لي الأيام ظهرها وهي تهزأ مني وتلعن حمقي وسذاجتي وتنكر عليَّ حقي... أدركت الآن لماذا انجذبتُ إليك من أول وهلة، وتمنيت في قرارة نفسي أن نصبح أصدقاءً، بل أكثر من أصدقاءٍ، ولماذا أشعر الآن أنك أخي وأنني مسؤول عنك، حياتي مرتبطة بك، كل واجبي هو حمايتك والدفاع عنك، فأنت صورة ظللتُ أرسمها، أتخيلها وأنتظرها منذ أُلقِيَ بنا في هذا المعسكر... كنتُ دائمًا أتساءل ماذا لو كانت حياتي قد اختلفت عما أنا فيه الآن، كنتُ أتخيل نفسي شيئًا آخر، مختلفًا تمامًا... وحين أتيتَ أنت، كانت آمالي على وشك الانهيار، وأحلامي قد أوشكت على الموت، كانت أيامي على أعتاب غروبٍ أبديٍّ، بلا شروق، كدتُ أستسلم لليأس، كدتُ أقتنع أن هذه الصورة لا وجود لها إلا في خيالي وأنه يصعب؛ بل يستحيل وجودها على أرض الواقع، فالحياة أقسى من ذلك كثير. وجئتَ أنت فانتعشتْ آمالي ونمت ورودي الذابلة. جعلتني أرى فيك أحلامي مجسَّدة، رأيتها تتحقق فيك أنت، فقد كنتُ دائمًا أراك قبل أن أراك، كنتُ أراك أنت وكأنه أنا، وكم تمنيت أن......

صمت بغتة، نظر إليَّ في حزن، ثم تابع قائلاً:

- ولكن، كم ضاعت من أماني، وكم تحطمت من أحلام، وأنا هنا، أنتظر أعِدُّ نفسي أنَّ اليوم قادم، وأني راحل لا محالة، حتى كان قدومك

أنت بمثابة المواجهة، الصفعة التي أخرجتني من دائرة أوهامي، وأعادتني إلى عالم الواقع، فقدومك كان إعلانًا نهائيًا بأنه لم يعد لي مكان أو أمل في عالم كنتُ أتمناه، أتوق إليه، وأستعد له فحين نظرت إليك أدركت أن الفجوة كبيرة، الفرق شاسع، وأنني لم أعد أصلح لذلك العالم، لقد صار الوقت متأخرًا، متأخرًا جدًا، لذا قرَّرت أن أحتويك أنت، أحافظ عليك، خفت عليك منهم، وخفت أكثر أن تعتاد الحيلة هنا، أن تصير مثلهم، مثل كل شيء هنا، خفت أن تصبح مناضل آخر فأفقد أنا كل ما حلمت به يومًا، وكل ما منَّتْ عليَّ به الدنيا.
أرجو أن تغفر لي وأن تعلم أنك منذ اليوم - بل منذ لحظة قدومك - قد صرتَ أخًا لي، وكلُّ همِّي في هذه الحياة، أن أناضل، دفاعًا عنك.

شعرتُ بالحزن يغزو قلبي وأنا أستمع إليه، وعيناي تمسحان عينيه التي ملأتهما الدموع فانحدرت على وجنتيه بطيئة، متحدية، حزينة ككل شيء فيه. مسح تلك الدموع التي انفلتت رغمًا عنه في سرعة وصرامة، وكأنه لا يليق به أن يبكي أمامي، فقد نذرني حياته، وتعهَّد بالدفاع عنِّي؛ فكيف يبدو أمامي ضعيفًا إذن؟

هكذا إذن يا مناضل، هكذا إذن يا مجتمع الرجال، فكم من آمال ضاعت، وكم من أحلام تحطمت، كم من رؤًى ذهبتْ بلا رجعة، وكم

من أماني تبخرت، كم فيك من نفوس كُتب عليها العذاب، قُدِّرَ لها أن تحيا ممزقةً، كم من ألم يقتلها وهي ترى آمالها وأحلامها تتسرب من بين يديها فلا تستطيع لها تحقيقًا، ويضيع العمر أمامها وهي لا تستطيع الاقتراب منها، وكم من أيامٍ صارتْ بالنسبة لها شِبْهَ أيامٍ، أشباحًا، لا جديد فيها، ولا قديم، لا مستقبل أمامها، ولا ماضي أو ذكرى تجد فيها السلوى والعزاء على فراغ حياتها، أيام صارت بلا معنى، بلا أمل أن تحيا فيها ولو لحظة.

آه... من ذلك البأس، تلك القوة والصرامة وما تخفيه من ألم وعذاب، من ضعف وهزيمة، فكم من نفس هزمتها الحياة، نكست فيها راية الأمل، فاتَّخذت من الشراسة قناعًا، من القسوة مظهرًا، ومن الغلظة أسلوبًا وحيلة، حتى تخفي ما حطمه فيها الزمن، ما سحقته فيها الأيام... حتى تداري دموعًا إن تركت لها العنان انسابت أنهارًا، فارتوى منها العطشى والمحزونين... آه، من تلك الحياة!

نظرت إليه بابتسامة حزينة، بقلبٍ مضطرب، وكأنني أحاول أن أبثه كل ما تمناه، وكل ما حرم منه يومًا. وإمعانا في تأكيد ارتباطي به، عطفي عليه، وتفهمي لمعاناته وكل ذلك العذاب الذي يحيله، اقتربت منه وأنا أربت على كتفه قائلاً:

- أحبك... يا أخي!

- ٥ -

مرَّت عليَّ أيامٌ اعتدتُ فيها شقاءَ الحياة في المعسكر، تعاسة الوجوه، حزن الأعين، والوجوم والصُّمت الذي يلفنا في معظم الأحيان، كنتُ أصحو من النوم مبكرًا، أتخطَّى الأجساد المُمدَّدة، المتراصَّة المتلاصقة، أخرج لأتجول بين الخيام في مساحة محدودة، أتأمل الأرض التي تكسوها الرمال، وتتناثر فوقها أوراقٌ ممزَّقة وبقايا أشياء تاهت ملامحها فلم تعد تدرك كنهها، لم تعد تستطيع إدراك ماهيتها، كان لونُ الخيام قد استحال إلى لونٍ لا لون له، باهت، بالٍ، يشبه لون التربة، لون الأرض، لون البرد ولون المعاناة، لون الحزن ولون الألم، لون الوحدة ولون الشوق إلى حياتي التي كانت.

كنتُ أرنو ببصري، أحاول أن أعبر حدود المعسكر، أتخطى الحواجز والأسلاك لأرى بارقات الأمل عليَّ قادمة، هناك، على أول الطريق، لكني لم أكن أرى سوى الفضاء الواسع اللا نهائي الذي كان يمتد كامتدادٍ لأحزاني وآلامي... أدركتُ أنني قد بدأت حياةً أخرى، لا فرح فيها ولا أمل، حياة ممتدة مثل ذلك الفضاء الواسع الذي يكاد من سعته

يخنق حريته... وفيما يعنيك الفضاء على رحبه وأنت لا تملك الحرية؟.. وماذا تفعل بالحرية وأنت لا تملك حق استغلالها؟.. وكيف تستغلها إن امتلكتها وقد فاتك كل شيء، وقد مضت بك الحياة ولم تعش فيها يومًا، تنتظر أملاً لا يجيء، انتظارًا لغدٍ لا يشرقُ صباحُه أبدًا؟

كانت أفكاري تدورُ في حلقةٍ مفرغة، كل الأسئلة تؤدِّي إلى بعضها، لأعودَ في النهاية بلا إجابة. وبعد تفكير وعناءٍ توصلت إلى قرار، إلى حلٍّ قد يريحني بعض الوقت، أو أبدًا... قرَّرتُ ألا أفكر، ألا أتساءل، ألا أتذكر ما كان، قرَّرت أن أحيا مثلهم، أحيا كل يوم وكأنه يوم جديد، رغم علمي ويقيني أنه لا جديد فيه، لا أمل، ولا وجود.!

لم يكن يفرجُ عني سوى حديثي مع مناضل، أيقنتُ أني قد أصبحتُ أحبَّ إليه من نفسه، أقرب إليه من أي مخلوق كان، وتعلقتُ به أنا أيضًا ولم أعد أفارقه لحظة، أصبح مناضل كل ما أملك وكل ما أحب، ودار بخاطري يومًا أنه قد يتركني حيث إنهم كانوا قد أخبرونا بأنه سيتم نقلنا إلى أماكن أخرى أوفر رعاية وأكثر تنظيمًا، طبقًا لأقدميةِ وجودنا في المعسكر، وبالطبع كان هو أقدم مني، وذلك معناه أنه حين يحين دوره سيرحل ويتركني، ورغم خوفي من تلك اللحظة إلا أنني كم تمنيتها وتاقت نفسي إليها، من أجله هو، تمنيت أن يرحل مناضل، أن

يرى الحية التي عشقها، التي أرادها، أن يحقق بعضًا من أحلامه، أن يعيش لحظاتٍ يظل العمر يذكرها، ويذكرني.

سألت مناضل يومها إن كان سينساني أم أنه سيحاول رؤيتي، زيارتي أو الاطمئنان عليَّ. ضحك مناضل ضحكةً صرتُ أحبها كثيرًا وأطرب لسماعها، اتسعتْ عيناه وهو ينظر إليَّ في عطفٍ وحنان، ثم قال وهو يضمُّني إليه:

- هل تهتم حقًا لأمري؟.. هل تخشى فراقي؟.. لكن لا تقلق فلن أتركك وحدك أبدًا... أولاً: لأني لا أستطيع، وحتى وإن حدث فسأطلب البقاء، من أجلك أنت. ثانيًا: لأن هذا لن يحدث، فمازلت بريئًا رقيقًا كما كنت أول مرة رغم كل ما رأيت وما عايشت. صدقني لن يحدث شيئًا من هذا، فما هي إلا وعود ليس أكثر للحفاظ على الانضباط في المعسكر، ضمانًا لعدم الثورة أو الاحتجاج، إنها كلمات تلعب بخيالك، تجعلك تتجرَّع الأمل فيختلط بروحك، يجري في دمائك، ينتشر في خلاياك، فتظل تحلم، وتبني على الأحلام صروحًا وأوهامًا، ويمضي الوقت، وحين تكاد تفيق ـ بعد أن يذهبَ مفعول آمالك ـ تتجرَّع أملاً آخر، وهكذا... إن تلك الآمال ذات فاعلية مؤقتة، لكنها لا تجلب شفاءً أكيدًا، ولكن حسبنا أن نظل معًا، أليس كذلك؟

نظرتُ إليه، وتمنيتُ في تلك اللحظة لو كان بالفعل أخي، فحينئذٍ لم أكن أقلق لفراقنا طال أم قصر، لأنني أعلم أنه لا بُد عائدٌ، وأني لا بُد مُلاقيه.

شعرتُ بالتعاسة وأنا أكتشف أن ذلك الأمل ما كان إلا أكذوبةً، وهمًا كبيرًا، دربًا من المستحيل، ضاع أمل المنزل، أمل العائلة، أمل الراحة والهناء، وضاع أمل اللقاء.!

آهٍ يا أمي، كم أوحشتني، كم افتقدتك، وكم أوحشتني أختي، وتلك الأمسية التي لم تكتمل حتى في أحلامي، كم تاقت نفسي إليكم، أصبحتُ أراكم صورًا باهتة، بلا روح، صرتُ أخافُ أن يأتيني يومٌ أنساكم فيه، أنسى فيه ملامحكم، ولا يبقى منكم سوى ذكريات، كلمات جوفاء، لا تهتز لها مشاعري، لا يربطها بي موقف أو حدث. خفت أن تصيروا رتوشًا لا وجوه لها ولا تحديد، أصبحت أخشى عليكم من نسياني، وجدتني دون أن أدري تمامًا - مثلك يا مناضل- أخاف أن يمر العمر دون أن يتغير حالي، دون أن أعود إلى كل ما تركته ورائي، صرت أخاف أن تسرقني الأيام، ولا أجد أمامي ما أحققه بعد أن يمر العمر بساعاته ولياليه، دون أن يترك عليَّ أثرًا أو يدلك حتى وجودي.!

أدركت الآن عمق جُرحك يا مناضل، أدركت قسوة إحساسك بالوحدة والضياع، أدركت لماذا تعلقت بي، وكيف صرتُ أنا بالنسبة لك الأمل والحيلة، لا أدري كيف احتملتَ أنت كل ذلك، كيف صمدتَ وأنت ترى عِقدَ أيامك ينفرط أمام عينيك، ولا تستطيع أن تجمع منه حبةً واحدةً تحتفظ بها كذكرى ليوم مرَّ عليك، ليوم عشته، وددت لو كنت جزءًا منه، وكيف ضنَّتْ عليك الأيام حتى بالأمل في الغد.

آهٍ يا مناضل، آهٍ لو تدري كم أتألم من أجلك الآن، ومن أجلي أنا أيضًا، فقد أيقنتُ أن حياتي ستصبح صورة من حياتك، وأملي لن يكون سوى امتدادٍ لأملك الذي خاب، لكن عزائي يا مناضل أني قد عشت بعض الأيام، مازلت أحمل في قلبي ذكرى، وفي عقلي صورًا وأسماءً... ترى يا مناضل هل مازلت تذكر لك أهلاً؟.. هل يراودك الحنين إلى إنسان ما، قد تكون تركته خلفك حين أتوا بك إلى هنا، وحيدًا، كسيرًا، ليلقوا بك في غياهب النسيان؟...

وترى هل يذكرني أهلي؟.. أم أني أصبحت بالنسبة لهم كلمة طواها الكتمان؟.. نجمًا احترق في سماء الأحزان؟.. أو لحظةً مرَّت وضاعت بين الأزمان؟..

وصحوتُ ذات يوم، وأنا أعلم أن حياتي قد صارت بغيضة، لا تُطاق، صحوتُ وأنا أعلم أنك لم تكن هناك يا مناضل، فقد سلبتك الحيلة

أحلامك، وسلبني الموت إياك، كنتُ أنا أعلم الناس بما حدث لك وما عانيت، لقد كنتَ بالفعل مناضلاً، حاولتَ وجاهدتَ وناضلتَ من أجل حياة تمنيتَها، لكنك أبدًا لم تجدْها، وعندما فقدتَ الأمل في إدراكها، آثرتَ الانسحاب، الاستسلام، فلم يعدْ هناك جدوَى من كل هذا الألم والعذاب، لم يعدْ هناك داعٍ للنضال.

أعلم أنك قد تركتني مُرغمًا، مثل أبي، مثل أمي، مثل أختي، ومثل كل شيءٍ أحببته، لكني أبدًا لم أغضبْ منك، لم أثُرْ عليك لأنك قد أخلفت وعدك لي، لم أسخط لتخليك عني، فأنا أعلم أنه قد آن لك أن تستريح. لكني افتقدتك، حزنتُ عليك حزنًا أمات قلبي، لقد فقدتُ بعدك الأمل في كل شيء، فقدتُ الأمل في رؤية أمي وأختي، ولم أعد أذكر كم مرَّ على فراقهما الآن، أدركتُ أن هذه هي حياتي، وأنَّ عمري سينقضي هنا، مثلك أنت.!

مرَّت سنون، تبعتها سنون، راح مناضل، وبعده كثيرون، وبقيت أنا، لكني كنتُ أعلمُ أن دوريَ قادمٌ لا محالة... فما أصعبَ القهرَ على نفوس الرجال.!

۞۞۞۞۞





شمس للنشر والاعلام

رؤية جديدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر، تم تأسيس "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، ومابين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات، تتمثل في:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ العربي، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على نشرها وإبرازها.

- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية في العديد من الدول.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.
- إعادة نشر التراث المعرفي العربي ذي الإفادة في عصرنا، وتحقيقه وتدقيقه.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له؛ في النهاية؛ مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

إننا في "شمس للنشر والإعلام" إذ نسعى لتجاوز العديد من السلبيات في مجال النشر، فإننا لا نزعم قدرتنا على إحداث طفرة أو ثورة في معايير النشر السائدة، بل نسعى إلى التكامل مع جميع المهتمين والمهمومين بأحوال النشر في عالمنا العربي، ونمد أيادي التعاون لكل صاحب حلم أو تجربة راقية في هذا المجال، إيماناً منا بأن العلاقة التي تربطنا بالمهتمين والعاملين في مجال النشر هي علاقة تكاملية لا تنافسية، وأن التعاون للرقي بالكاتب والكتاب، سيعود بالنفع على الجميع، بدءاً من المؤلف إلى المتلقي إلى الناشر.

شمس للنشر والاعلام

www.shams-group.net
(+2) 02 7023206 - (+2) 0188890065/64

فهرس





القاهرة: (+٢)٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤ - (+٢)٠١٨٨٨٩٠٠٦٥